

أُولُوا بَقِيَّةً

فَقْهُ الْمَنَاعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ

قراءة تأملية في قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

:

أولو بقية

حُرَّاسُ الْمَعْنَى فِي زَمَنِ الْفَسَادِ
قِرَاءَةُ تَأْمَلِيَّةٌ فِي فِقْهِ الْمُنَاعَةِ
الْأَخْلَاقِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



قال تعالى: [فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُوْنَ عَنْ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ].. هود (١١٦)

هذه الآية من خواتيم سورة هود، وتجيء بعد عرضٍ طويلٍ لمصارع الأمم: قوم نوح، وعاد، وthumb، وقوم لوط، ومدين، وفرعون. كأن السورة بعد أن كشفت مصائر الحضارات حين تكذب الوحي وتستكبر عن الإصلاح، تقف عند قانونٍ عميق من قوانين بقاء الأمم وسقوطها، فنقول: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)

أي: هلا وُجد في تلك الأمم السابقة أصحابٌ عقلٍ ودينٍ ورشدٍ وبصيرةٍ وفضلٍ باقٍ، ينهضون في وجه الفساد قبل أن يستحكم، ويمنعون مجتمعاتهم من الانزلاق إلى الهاوية، ويقاومون خراب الأرض أخلاقياً وعقدياً واجتماعياً وسياسياً؟ لكن الواقع المؤلم أن هؤلاء كانوا قليلاً، ولذلك لم تنتج الأمم إلا بقلةٍ ناهضةٍ بالحق، بينما جرّفت الكثرة شهواتُ الترف والظلم والتكذيب.

أعمق كلمة في الآية هي: (أُولُوا بَقِيَّةً).

ليست البقية هنا مجرد بقاء عددي، ولا مجرد أشخاص بقوا بعد غيرهم، بل هي بقية من الخير، وبقية من العقل، وبقية من الفطرة، وبقية من الحياء، وبقية من الشجاعة الأخلاقية، وبقية من القدرة على رؤية النهاية قبل وقوعها.

كأن الأمة إذا فسدت لا تهلك أول ما يظهر فيها الفساد، بل تهلك حين لا يبقى فيها من يملك بقيةً من نورٍ يقاوم بها الظلمة.

فالفساد قد يوجد في كل مجتمع، والظلم قد يتسلل، والشهوات قد تضغط، والأهواء قد تغري، لكن الخطر الحقيقي ليس في وجود الفساد وحده، بل في غياب القوة الناهية عنه؛ في غياب النخبة الربانية التي تقول: هذا منكر، هذا خراب، هذا عدوان على معنى الإنسان، هذا خروج عن ميزان الله في الأرض.

ولهذا لم تقل الآية: فلولا كان فيهم صالحون فقط، بل قالت: **(يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)**.

فالصالح الفردي وحده لا يكفي لإنقاذ الأمة إذا تحول إلى عزلة صامتة. قد يكون في الناس عباد، وزهاد، ومصلون، وأصحاب نيات حسنة، لكن السنن لا ترحم المجتمع إذا لم يتحول الصلاح إلى قوة نهية وإصلاح وممانعة أخلاقية.

الآية لا تبحث عن صالحين ساكنين، بل عن أصحاب بقيةٍ ناهية.

وهنا تظهر دقة التعبير القرآني: **(يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)**، لا عن خطأ صغير، ولا عن ذنب فردي محدود، بل عن الفساد حين يتحول إلى نظام،

وإلى ثقافة، وإلى شبكة مصالح، وإلى نمط حياة، وإلى عمرانٍ مريضٍ يَلَوْتُ الأرض ومن عليها.

فالفساد في القرآن ليس معنى إداريًا ضيقًا، بل هو كل خروجٍ عن صلاح الوجود الذي أراده الله: فساد العقيدة، فساد الحكم، فساد المال، فساد الأخلاق، فساد العلاقات، فساد الميزان، فساد القوة حين تنفصل عن العدل، وفساد اللذة حين تنفصل عن الطهارة، وفساد المعرفة حين تنفصل عن الهداية.

ثم تأتي الجملة التالية لتكشف سبب السقوط: **(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)**

هنا يضع القرآن يده على الجذر النفسي والاجتماعي للانهيـار: الترف.

ليس المقصود بالترف مجرد الغنى، فالغنى قد يكون نعمة إذا انضبط بالشكر والعدل، ولكن الترف هو أن تتحول النعمة إلى غفلة، والراحة إلى رخاوة، والسعة إلى بطر، والمال إلى حاجزٍ بين الإنسان والحقيقة.

المترف لا يرفض الحق دائمًا لأنه لا يفهمه، بل لأنه يخاف أن يطالبه الحق بتغيير نمط حياته. ولذلك يكون الترف من أخطر أعداء الإصلاح؛ لأنه يصنع إنسانًا يحب استمرار الفساد ما دام الفساد يخدم لذته ومكانته ومصالحته.

ومن هنا نفهم لماذا قال: **(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ)**.

لم يقل: اتبعوا ما علموا، ولا ما عقلوا، ولا ما قامت عليه الحجة، بل اتبعوا ما أترفوا فيه؛ أي صار الترف قائدهم، وصارت النعمة غير المهدبة بالوحي هي التي تحدد موقفهم من الحق والباطل.

إنها آية في نقد الحضارات حين تفقد جهازها الأخلاقي الداخلي.

فكل أمة تحتاج إلى أولي بقية:

بقية من العلماء الربانيين،

بقية من الحكماء،

بقية من المصلحين،

بقية من أصحاب الضمير،

بقية من الذين لا يشترون السلامة بالصمت،

بقية من الذين يعرفون أن الحياد أمام الفساد ليس حكمة، بل مشاركة مؤجلة في الهلاك.

والتعبير بـ (بَقِيَّةٍ) مؤلم جدًا؛ لأنه يوحي أن الخير في لحظات الانهيار لا يكون غالبًا كثرةً ضخمة، بل يكون بقايا محفوظة من الانجراف العام. كأن الفطرة تُستنزف، والعقل يُستهلك، والضمير يُخدَّر، ثم لا يبقى في الأمة إلا قليل يحملون آخر ما تبقى من روح النجاة.

ولذلك قال بعدها: (إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ).

فالنجاة هنا ليست صدفة. الناجون هم الذين لم يذوبوا في الموجة العامة، ولم يجعلوا كثرة الفسادين برهانًا على صحة الطريق، ولم يقولوا: الناس كلهم هكذا. بل بقي فيهم شيء يقاوم، شيء يرفض، شيء يتألم من الفساد، شيء يرى ما لا تراه العيون المخدرة بالتزلف.

هذه الآية تعلمنا أن الأمة لا تسقط فقط حين يكثر فيها الفاسدون، بل حين يضعف فيها الناهون عن الفساد.

وتعلمنا أن الإصلاح ليس ترفاً فكرياً، ولا خطاباً جانبيّاً، بل هو شرط من شروط بقاء العمران.

وتعلمنا أن الله قد يدفع الهلاك عن مجتمعٍ بوجود فئةٍ حيةٍ صادقةٍ تنهى وتقاوم وتصلح، كما قال في الآية التي بعدها مباشرة: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

ولم يقل: وأهلها صالحون.

بل قال: مصلحون.

لأن الصالح قد ينجو بنفسه، أما المصلح فهو جزء من مناعة الأمة.

فالآية ترسم قانوناً حاسماً:

بقاء الأمم ليس بكثرة أموالها، ولا باتساع عمرانها، ولا بقوة سلطانها، بل ببقاء فئةٍ واعيةٍ تنهى عن الفساد، وتحفظ ميزان الحق، وتمنع المجتمع من الانتحار الأخلاقي باسم اللذة أو القوة أو المصلحة أو التقدم.

ومن أبلغ ما يمكن أن يقال في خلاصتها:

إن أولي البقية هم آخر حراس المعنى في زمن الانهيار؛ فإذا غابوا، لم يبقَ بين الأمة وبين الهلاك إلا مهلة الاستدراج.

الحمد لله، هذا من فضل الله وتوفيقه.

والذي أسعدني في الأمر ليس مجرد الاستحسان، بل أن الآية وصلت إلى الناس من زاويتها الحيّة: أن القرآن لا يصف سقوط الأمم وصفًا تاريخيًا باردًا، بل يكشف قانونًا باقياً في العمران والضمير؛ وأن الأمة لا تحتاج إلى كثرة صامته بقدر ما تحتاج إلى أولي بقيّة يحفظون فيها آخر خطوط المناعة من الانهيار.

والظاهر أن النص لاقى أثره لأن فكرته أصابت موضعاً حساساً في الوعي العام: الناس ترى الفساد، وترى الترف، وترى الصمت، لكنها تحتاج إلى عبارة تجمع هذا كله في قانون قرآني واضح:

ليست الكارثة أن يوجد الفساد، بل أن يغيب مَنْ ينهى عنه. وليست النجاة بكثرة الصالحين المنعزلين، بل ببقاء المصلحين الذين يحملون شجاعة النهي ومروءة الإصلاح.

المقدمة الكبرى

حين يسأل القرآن عن الغائبين

في خواتيم سورة هود، بعد أن طافت السورة بالقلب الإنساني على مصارع الأمم، وبعد أن كشفت للوعي المؤمن أن التاريخ ليس حكاية منفصلة عن الوحي، ولا سجلاً جامداً لوقائع مضت، بل هو كتابٌ مفتوحٌ في سنن الله، ومرايا متتابعة يرى فيها الإنسان مصيره حين ينفصل عن الهداية، تأتي هذه الآية كأنها سؤالٌ ثقیلٌ ينهض من بين أنقاض القرى الهالكة: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

إنها ليست آيةً تصف الماضي فقط، بل آيةٌ توقظ الحاضر. وليست خطاباً لأممٍ غبرت وانتهت، بل سؤالٌ باقٍ يمرّ على كل جيل، ويقف أمام كل مجتمع، ويفتش في كل أمة عن أولئك الذين لا تزال فيهم بقيةٌ من نور، وبقيةٌ من عقل، وبقيةٌ من دين، وبقيةٌ من شجاعة، وبقيةٌ من حياء، وبقيةٌ من قدرةٍ على أن يقولوا للفساد: لا.

فالقرآن هنا لا يسأل: لماذا وُجد الفساد؟

لأن الفساد قد يوجد في كل مجتمع، وقد تتسلل الشهوة إلى النفوس، وقد يضعف الإنسان أمام المال، وقد تنحرف القوة عن العدل، وقد يطغى السلطان، وقد تتبدل الموازين.

لكن السؤال الأخطر هو: أين الذين ينهون؟

أين الذين يمنعون الفساد من أن يصير عادة؟
أين الذين يملكون شجاعة مقاومة الانحراف قبل أن يتحول إلى ثقافة عامة؟
أين الفئة التي لا تكتفي بالنجاة الفردية، بل تحمل همّ النجاة الجماعية؟
هذا هو موضع الرهبة في الآية.

إن الأمة لا تسقط أول ما يدخلها الفساد، بل تسقط حين تفقد قدرتها على الإنكار، وحين تموت فيها الحساسية الأخلاقية، وحين يصير الباطل مألوفاً، والظلم مقبولاً، والانحراف ذوقاً اجتماعياً، والترف معياراً للنجاح، والصمت حكمةً مزيفة، والمداينة عقلانيةً كاذبة.

عندئذ لا يكون الفساد مجرد خطأ، بل يصير مناخاً.
ولا يكون الظلم مجرد حادثة، بل يصير نظاماً.
ولا يكون الانحراف مجرد شنود، بل يصير ذوقاً عاماً.
ولا تكون الأمة قد أخطأت فحسب، بل تكون قد فقدت جهازها الداخلي الذي يميز بين الصلاح والخراب.

ولهذا قال القرآن: ﴿أُولُوا بِقِيَّةٍ﴾.

والبقية هنا لفظ عجيب؛ لأنه لا يشير فقط إلى أناس بقوا بعد غيرهم، بل إلى معنى بقي فيهم بعد أن تآكل في غيرهم.
بقيت فيهم فطرة لم تُمسح، وبصيرة لم تُطفأ، ومروءة لم تُشتَر، وضمير لم يُخدَر، وغيره على الحق لم تبتلعها المصالح، واستقلال داخلي لم تكسره هيبة الأكثرية.

كأن المجتمع حين يفسد لا ينعدم فيه الناس، بل ينعدم فيه المعنى. تبقى الأجساد كثيرة، والأسواق عامرة، والبيوت مفتوحة، والسلطان قائمًا، والأصوات عالية، لكن البقية التي تحفظ روح الأمة تكون قليلة. وهذه هي المأساة: أن تكون الأمة كثيرة العدد، قليلة البقية؛ واسعة العمران، ضيقة الضمير؛ عالية الضجيج، خافتة الحق.

من هنا يصبح أولو البقية هم حراس المعنى في زمن الانهيار، لا لأنهم أكثر الناس عددًا، ولا لأنهم أملكهم للقوة، ولا لأنهم أرفعهم في الجاه، بل لأن فيهم ذلك القدر المتبقي من النور الذي يمنع الليل من أن يعلن نفسه حقيقةً نهائية.

إنهم ليسوا مجرد وعّاظ على الأطراف، ولا أصواتًا غاضبة خارج حركة التاريخ، بل هم ضرورة حضارية.

فكما يحتاج الجسد إلى جهاز مناعة لا يرى في كل لحظة لكنه يمنع الموت من التسلل، تحتاج الأمة إلى فئة ناهية مصلحة تردّها إلى ميزانها، وتكشف لها مواضع العطب، وتمنع الفساد من أن يتزين بأسماء براقة.

والقرآن في هذه الآية لا يمدح الصمت، ولا يكتفي بالصالح المنعزل، ولا يجعل النجاة حكرًا على من انسحب من الواقع وترك الناس لمصائرهم، بل يجعل مناط النجاة في تلك القلة التي نهضت بوظيفة النهي عن الفساد. فليس كل صالحٍ مصلحًا، وليس كل ناجٍ في نفسه سببًا لنجاة غيره، وليس كل من كره الفساد في قلبه قد أدى وظيفة البقية إذا قدر على البيان والنهي والإصلاح ثم أثر السلامة.

هنا تظهر الآية في عظمتها:

إنها لا تؤسس لمزاج احتجاجي عابر، بل لفقهٍ كاملٍ في بقاء الأمم.

ولا تصنع خطاباً عاطفياً ضد الفساد، بل تكشف قانوناً ربانياً: أن المجتمعات لا تهلك لأنها خلت من الضعفاء فقط، بل لأنها خلت من الأقوياء بالحق؛ لا لأنها فقدت المال فقط، بل لأنها فقدت الضمير؛ لا لأنها لم تعرف الرفاه، بل لأنها اتبعت ما أترفت فيه حتى صار الترف إمامها، وصارت اللذة قائدها، وصارت المصلحة العاجلة دينها الخفي.

ولهذا جاءت الجملة بعدها كاشفةً لجذر السقوط: **(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)**.

فحين يغيب أولو البقية، لا يبقى فراغٌ محايد.

بل يملأ الترف ذلك الفراغ.

وتقود الشهوة الوعي.

وتعيد المصالح تشكيل الأخلاق.

ويصير الظالمون هم أصحاب الصوت الأعلى، لأن الذين كان ينبغي أن ينهوا قد صمتوا، أو انشغلوا، أو خافوا، أو اكتفوا بصلاحٍ فردي لا يزاحم الفساد في ساحته.

إن هذا الكتيب محاولة للوقوف عند هذه الآية لا بوصفها جملةً في سياق قصصي، بل بوصفها مفتاحاً من مفاتيح فهم العمران القرآني: كيف تحفظ الأمم؟ وكيف تسقط؟ وما الفرق بين الصالح والمصلح؟ ولماذا يكون النهي عن الفساد وظيفةً وجودية لا نافلة اجتماعية؟ وما معنى أن يبقى في الأمة أولو بقية حين يوشك كل شيء أن ينحرف؟

ليست الغاية أن نجلد الواقع، ولا أن نرسم صورة قاتمة للناس، بل أن نسترد من الآية نورها العملي: أن النجاة تبدأ حين يبقى في الإنسان شيءٌ لم يخضع

للفساد، وحين يبقى في الأمة نفرٌ لا يسمحون للخراب أن يلبس ثوب الحكمة، ولا للترف أن يتحول إلى معيار، ولا للصمت أن يُسمّى اتزانًا، ولا للباطل أن يمرّ باسم المصلحة.

فأولو البقية ليسوا طبقةً معزولة، ولا لقبًا يُمنح، ولا دعوى يرفعها الإنسان لنفسه، بل مقامٌ ثقيلٌ لا ينهض به إلا من بقي فيه من الحق ما يجعله مؤلمًا للباطل، ومن الرحمة ما يجعله ناصحًا للناس، ومن البصيرة ما يجعله يرى العاقبة قبل أن تتكشف، ومن الشجاعة ما يجعله يتكلم حين يكون الصمت أريح، ومن الإخلاص ما يجعله لا يطلب بنهيه سلطانًا على الخلق، بل نجاةً لهم من الفساد.

ومن هنا نبدأ.

من سؤال الآية.

من هذا النداء الخفي:

أين أولو البقية؟

أين الذين ينهون عن الفساد في الأرض؟

وأين ذلك القليل الذي إذا وُجد، صار علامةً على أن الأمة لم تفقد بعدُ آخر

أسباب النجاة؟

الفصل الأول

سورة هود ومشهد مصارع الأمم

لا تُقرأ آية (أُولُوا بِقِيَّةٍ) منفصلةً عن هواء سورة هود، ولا عن ذلك الجوّ الثقيل الذي تسير فيه السورة من أولها إلى آخرها، كأنها تعرض على القلب الإنساني مشهد التاريخ وهو يتعرّى أمام الوحي، وتكشف أن الأمم لا تسقط فجأة، ولا تهلك اعتباطاً، ولا تنتهي مصائرهما لأن الزمن دار عليها فحسب، بل لأنها دخلت في صدامٍ طويلٍ مع الحق، ثم بالغت في التكذيب، ثم حوّلت الفساد من عارضٍ أخلاقي إلى بنية اجتماعية، ثم لم تجد في داخلها من يوقف هذا الانحدار قبل أن يبلغ نهايته.

سورة هود من السور التي تُربّي المؤمن على النظر إلى التاريخ نظراً سننياً لا نظراً حكاينياً؛ فهي لا تسرد قصص الأنبياء لمجرد العظة العامة، ولا تذكر مصارع المكذبين لتصنع في النفس خوفاً عابراً، بل تبني وعياً كاملاً بحقيقة الصراع بين الوحي والفساد، وبين النبوة والترف، وبين القلة المؤمنة والكثرة المنجرفة، وبين المصلحين الذين يريدون للناس النجاة، والمجرمين الذين يريدون للحياة أن تبقى خاضعةً لشهواتهم ومصالحهم وامتنيازاتهم.

ولهذا جاءت السورة كأنها محكمة كبرى للتاريخ.

تتقدم فيها الأمم واحدةً بعد أخرى.

قوم نوح، وعاد، وثمرود، وقوم لوط، ومدين، وفرعون.

كل أمةٍ تحمل صورتها الخاصة من الانحراف، وكل نبيٍّ يواجه نمطاً من

الفساد، وكل قصة تكشف أن الهلاك لم يكن ظلمًا من الله لعباده، تعالى الله عن ذلك، وإنما كان نتيجةً عادلةً لمسارٍ طويلٍ من الإصرار على الباطل، ورفض النصح، ومقاومة الهداية، وإسكات صوت المصلحين.

إن القرآن حين يعرض هذه المصارع لا يريد أن يقول للإنسان: انظر ماذا حدث في الماضي فقط، بل يريد أن يقول له: انظر كيف تعمل السنن. فالماضي هنا ليس زمنًا منتهيًا، بل نموذجٌ قابلٌ للتكرار. والأمم الهالكة ليست أسماءً في ذاكرة التاريخ، بل مرايا يرى فيها كل مجتمع صورته الممكنة إذا سار في الطريق نفسه.

وهذا هو الفرق بين قراءة التاريخ بعين الوحي وقراءته بعين الغفلة. الغافل يرى في القصص القديمة أحداثًا مضت، والمؤمن يرى فيها قوانين باقية.

الغافل يقول: كانوا ثم ذهبوا.

أما القرآن فيقول: كانوا، فانظروا لماذا ذهبوا.

ومن هذا الباب تأتي آية ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ بوصفها خلاصة عميقة لذلك العرض الطويل.

كأن السورة بعد أن عرضت صور الانحراف المتعددة، وبعد أن كشفت إصرار الأقوام على التكذيب، وبعد أن بينت أن الرسل جاءوا بالنصح والبيان والإنذار، تسأل السؤال الفاصل:

لماذا لم توجد في تلك الأمم فئة كافية من أصحاب البصيرة والشجاعة تمنع الفساد من أن يصير مصيرًا عامًا؟

لماذا لم يتحول الخير الموجود في بعض النفوس إلى قوة ناهية؟

لماذا بقي الحق قليلاً محصوراً، بينما تمدد الباطل حتى صار هو المناخ العام؟

لماذا كانت القرى أقوى في عمرانها من ضميرها، وأوسع في دنياها من هداها، وأكثر في ناسها من أولي بقيتها؟

هنا تظهر عظمة الآية؛ فهي لا تكتفي بتسجيل الجريمة، بل تبحث عن غياب المقاومة الأخلاقية لها.

لا تقول فقط إن الفساد وُجد، بل تسأل: أين الذين كانوا ينبغي أن ينهوا عنه؟ لا تتوقف عند المفسدين، بل تكشف خطورة غياب المصلحين. ولا تجعل الكارثة في حضور الشر وحده، بل في غياب الخير الفاعل.

وهذا معنى كبير جداً في بناء الوعي القرآني؛ لأن المجتمعات لا تتجو بمجرد وجود أفراد صالحين في زواياها، إذا لم يتحول هذا الصلاح إلى موقف واضح من الفساد.

قد يكون في المجتمع من يصلي، ومن يتصدق، ومن يكره المنكر في قلبه، ومن يتحسر على تغير الزمان، لكن ذلك كله لا يصنع مناعة عامة ما لم تظهر فئة ناهية مصلحة واعية تعرف كيف تردّ الفساد إلى اسمه الحقيقي، وتمنعه من التزيّن، وتقطع عليه طريق التحول إلى عادة مقبولة.

ولذلك كان سؤال سورة هود سؤالاً عن أولي البقية، لا عن كثرة العابدين وحدهم.

لأن العابد إذا اعتزل فساد الناس وهو قادرٌ على البيان والإصلاح، فقد ينجو بقدرٍ من نجاته الفردية، لكن الأمة لا تُحفظ بالعزلة وحدها، بل تُحفظ بالممانعة الأخلاقية التي تمنع الانحراف من أن يصير نظاماً.

في قصة نوح عليه السلام نرى طول البلاغ، وصبر الدعوة، وامتداد الزمن، ومع ذلك يصبر قومه على المكابرة. وفي قصة هود عليه السلام نرى القوة حين تغتر بنفسها، وتنسى أن البطش ليس برهان حق. وفي قصة صالح عليه السلام نرى المجتمع حين يتحول طلب الآية فيه إلى امتحان للصدق، ثم يتحول الاعتداء على الناقة إلى إعلان حرب على أمر الله.

وفي قصة لوط عليه السلام نرى الفطرة حين تُقلب، والحياء حين يُنزع، والرذيلة حين تصبح هوية اجتماعية مدافعة عنها. وفي قصة شعيب عليه السلام نرى فساد السوق والميزان، حين تنفصل التجارة عن التقوى، ويصبح المال مجالاً لابتلاع حقوق الناس. وفي قصة موسى وفرعون نرى الطغيان السياسي حين يبلغ ذروته، فيجعل الناس طبقات، ويستعبد الضعفاء، ويصادر الحق باسم السلطان.

هذه ليست صوراً متفرقة من الشر، بل خريطة كاملة للفساد في الأرض. فساد الاعتقاد، وفساد القوة، وفساد الشهوة، وفساد المال، وفساد الحكم، وفساد الجماعة حين تصير الكثرة حجاباً عن الحق.

ثم تأتي الآية كأنها تقول:

في كل هذه الصور، كان السؤال الحاسم: هل بقي في القوم من ينهى؟

هل بقي فيهم من يرى الخراب قبل وقوعه؟

هل بقي فيهم من يخرج من أسر العادة، ومن ضغط الجماعة، ومن إغراء

المصلحة، ومن تخدير الترف، ليقول: إن هذا الطريق لا ينتهي إلا إلى الهلاك؟

إن مصارع الأمم في سورة هود ليست عقوباتٍ منفصلةً عن واقعها الأخلاقي، بل هي نتائج لفسادٍ فقد داخله قوى التصحيح. فحين يكثر الخطأ، ثم يُنكر عليه المصلحون، يبقى في الأمة باب رجوع. وحين يضعف الناس، ثم يجدون من يوقظهم، يبقى فيهم أمل. وحين تتسلل الشهوة، ثم توجد بقيةٌ تخجل منها وتردعها، لم يمت المجتمع بعد.

لكن حين يشيع الفساد، ويصمت الصالحون، ويُتهم الناهون، ويُكرّم المترفون، ويصبح الإنكار شذوذاً، والإصلاح إزعاجاً، والحق ثقلاً اجتماعياً؛ عندئذ لا تكون الأمة قد أخطأت فقط، بل تكون قد خلعت عنها آخر أدوات النجاة.

وهذا ما يجعل سورة هود سورةً شديدة الوقع على القلب؛ لأنها لا تسمح للإنسان أن يتعامل مع الفساد بوصفه تفصيلاً صغيراً في الحياة. الفساد في منطق القرآن ليس مجرد خلل جانبي، بل نقضٌ للصالح الذي قام عليه الوجود.

والأرض ليست مساحةً محايدةً يفعل فيها الإنسان ما يشاء بلا حساب، بل ميدان أمانة.

فإذا تحول الإنسان من مستخلفٍ مصلح إلى مستبدٍ مفسد، فقد نقض معنى وجوده في الأرض قبل أن ينهار عمرانها الظاهر.

وهنا نفهم لماذا قال القرآن: **(الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ)**.

لم يقل: يnehون عن فسادٍ في أنفسهم فقط، ولا عن معصيةٍ فرديةٍ منعزلة، بل عن الفساد حين يتمدد في الأرض، أي حين يخرج من باطن النفس إلى نظام الحياة، ومن نزوة الفرد إلى عادة الجماعة، ومن مخالفةٍ محدودةٍ إلى ثقافةٍ عامة، ومن خطأٍ مستورٍ إلى مشروعٍ معلن.

إن الفساد إذا بقي ذنبًا يستحيا منه، فالفطرة لا تزال تقاوم. أما إذا صار الفساد رأيًا يدافع عنه، ومصلحةً تُحمى، وسوقًا يُربح منه، وقوةً تستند إليها شبكات النفوذ، فقد دخل المجتمع مرحلةً خطيرةً لا يكفي فيها الوعظ الخفيف، بل تحتاج إلى أولي بقية يnehون عنه بوعيٍ وصبرٍ وشجاعة.

ومن هنا كان الرسل، عليهم الصلاة والسلام، أعظم أولي البقية في أقوامهم؛ لأنهم حملوا صوت الوحي في وجه فسادٍ صار هويةً اجتماعية.

لكن الآية لا تقف عند الرسل وحدهم، بل تعاتب الأمم على غياب الفئة التي تقف مع الرسل، وتحمل معهم معنى النهي والإصلاح.

فكانها تقول: لو كان في تلك القرون من أصحاب البقية عددٌ يكفي لحماية

المجتمع من الانهيار، لما انجرفت الأمم إلى ذلك المصير.

لكن أكثر الناس اتبعوا ما أترفوا فيه، ولم ينج إلا قليل.

وهذا القانون لا يزال قائماً.

كل مجتمعٍ يحتاج إلى من يمنع الفساد من التطبيع.

يحتاج إلى من يحفظ اللغة الأخلاقية من التزوير.

يحتاج إلى من يسمي الظلم ظلمًا، ولو لبس ثوب المصلحة.

ويسمي الخيانة خيانة، ولو تزيّنت باسم الذكاء.

ويسمى الانحراف انحرافاً، ولو رفع شعار الحرية.
ويسمى الترف المفسد ترفاً، ولو أطلق عليه الناس اسم التحضر.
ويسمى العبث عبثاً، ولو سوقته الشاشات في هيئة ذوقٍ جديد.

فالقرآن لا يريد من الأمة أن تكون كتلةً منفعةً بما يقع عليها، بل يريد لها أن تكون ذات ضميرٍ يقظ، وأن تحفظ في داخلها جهازاً حياً من النهي والإصلاح. وهذا الجهاز لا يصنعه الجبن، ولا المجاملة، ولا الخطاب الرمادي الذي يخاف من تسمية الأشياء بأسمائها، ولا التدين الفردي الذي يكتفي بسلامة صاحبه ويترك المجتمع للفساد العام.

إن سورة هود تُرينا أن المصلح لا يأتي في أوقات الراحة فقط، بل غالباً ما يظهر حين تكون الأمة قد ألفت فسادها، وحين يكون الحق غريباً، وحين تبدو العودة إلى الصلاح مستحيلةً في نظر الأكثرية.
لذلك كان الأنبياء يواجهون دائماً منطقاً اجتماعياً جاهزاً:

ما نراك إلا بشراً مثلاً،

ما جئنا ببينة،

إنا لنراك في سفاهة،

أصلاتك تأمرك،

لئن لم تنته يا لوط.

هذه العبارات ليست مجرد أقوال قديمة، بل هي نماذج متكررة من مقاومة المجتمع للمصلح.

فكل فسادٍ مستقرٍ يصنع لنفسه لغة دفاعية، يسخر بها من الناصح، أو يشكك في قصده، أو يعزله، أو يتهمه بالغلو، أو يطلب منه أن يساير الناس.

لكن أولو البقية لا يقيسون الحق بمدى قبول الناس له، بل بمدى موافقته للوحي والعدل والفطرة.

ولهذا فإن آية (أُولُوا بِقِيَّةٍ) ليست آيةً في ذم الماضي فقط، بل آية في صناعة الوعي المصلح.

إنها تقول لكل جيل: لا تكن من الكثرة التي ترى الفساد ثم تتكيف معه، ولا من الصالحين الذين انسحبوا من وظيفة الإصلاح، ولا من المترفين الذين جعلوا النعمة ستارًا عن العقوبة، بل كن من البقية التي تحمل ما بقي من الحق حين يخفّ وزنه في أعين الناس.

والبقية لا تعني القلة الضعيفة دائمًا؛ قد يكون صاحب البقية واحدًا في بيته، أو معلمًا في مدرسته، أو عالمًا في أمته، أو كاتبًا في لغته، أو قاضيًا في حكمه، أو تاجرًا في سوقه، أو شابًا في محيطه، لكنه يمثل خطأ فاصلاً بين مجتمع لا يزال حيًا، ومجتمع فقد القدرة على مقاومة خرابه.

ومن هنا يصبح السؤال الذي تطرحه سورة هود علينا سؤالًا شديداً:

هل فينا أولو بقية؟

هل بقي فينا من ينهى عن الفساد لا طلبًا للغلبة، ولا حبًا في الخصومة، ولا رغبةً في التشهير، بل حفظًا لمعنى الإنسان، وصيانةً للأرض من الخراب، وقيامًا بحق الله فيما أمر ونهى؟

هل بقي فينا من يفهم أن السكوت عن الفساد ليس سلامةً دائمًا، بل قد يكون مشاركةً في صناعة الهلاك؟

وهل بقي فينا من يدرك أن الأمة لا تنجو بخطابٍ جميل عن الفضيلة، إذا كان هذا الخطاب لا يملك شجاعة الوقوف في وجه الفساد حين يستقوي؟

إن سورة هود لا تعرض التاريخ لتتركنا أمام الذاكرة، بل لتدخلنا في المسؤولية.

فكل قصة فيها تقول لنا: احذروا أن تتكرروا.

وكل أمة هلكت تقول لنا: فتنشوا عن سبب الهلاك قبل أن تفتنشا عن مشهد العقوبة.

وكل رسول وقف في وجه قومه يقول لنا: لا بقاء للحق في الأرض بغير مصلحين.

وكل آية في السورة تقودنا إلى هذا المعنى: أن العمران إذا خلا من الوحي، والقوة إذا خلت من العدل، والمال إذا خلا من الأمانة، والشهوة إذا خلت من الطهارة، والكثرة إذا خلت من البصيرة، فإن الأمة تمضي إلى هاويتها وهي تظن أنها تمضي إلى مجدها.

وبهذا يكون قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ ليس

مجرد استفهام إنكاري، بل نداء ممتدًا في الزمن:

ليكن فيكم من يحمل البقية.

ليكن فيكم من ينهى.

ليكن فيكم من لا يبيع آخر ما تبقى من ضمير الأمة بثمن الراحة أو القبول أو السلامة.

فإذا بقي هؤلاء، بقي في الأمة سبب من أسباب الرحمة.

وإذا غابوا، لم يبق للفساد من يردعه، ولا للترف من يفضحه، ولا للهلاك من يؤخره إلا ما شاء الله.

وهكذا تنتهي سورة هود بنا إلى معنى كبير:

ليست النجاة أن تعرف قصص الهالكين، بل أن تفهم لماذا هلكوا.
وليست العبرة أن تبكي على أطلال الأمم، بل أن تسأل نفسك: أين موقعك
من السنة؟

هل أنت من المتفرجين على الفساد، أم من المنكرين له؟
هل أنت من الصالحين المنسحبين، أم من المصلحين الحاملين؟
هل بقي فيك من البقية ما يجعلك تقاوم، أم ابتلعك ما أترف فيه الناس حتى
صرت ترى الانحدار تقدمًا، والصمت عقلًا، والمداهنة حكمة؟

تلك هي رهبة سورة هود.

إنها لا تسمح لنا أن نقرأ التاريخ من بعيد.
إنها تجعل التاريخ يدخل في ضميرنا، ثم تسألنا:
أين أولو البقية؟

الفصل الثاني

معنى قوله تعالى: ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾

ليست عبارة ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ من الألفاظ التي تُفهم على عجل، ولا من الكلمات التي يمرّ عليها القارئ كأنها وصفٌ عابرٌ لجماعةٍ قليلةٍ نجت من الهلاك، بل هي من تلك العبارات القرآنية المكثفة التي تحمل في داخلها تاريخاً كاملاً من المعنى؛ لأنها لا تشير إلى مجرد أناسٍ بقوا بعد غيرهم، وإنما تشير إلى أناسٍ بقي فيهم شيءٌ لم يبقَ في غيرهم، بقي فيهم من الدين ما يمنع الذوبان، ومن العقل ما يمنع الانخداع، ومن الفطرة ما يمنع المسخ، ومن الضمير ما يمنع التطبيع مع الفساد، ومن الشجاعة ما يمنع الصمت حين يصير الصمت مشاركةً خفيةً في الهلاك.

إن لفظ البقية في أصل إحساسه اللغوي يوحي بما يبقى بعد ذهاب الكثير، وبما يثبت بعد أن يتآكل ما حوله، وبما يصمد حين تتساقط الأشياء من حوله. وفي السياق القرآني هنا يزداد اللفظ عمقاً؛ لأن الحديث ليس عن بقاء الأجساد، بل عن بقاء المعنى. فالأمم الهالكة لم تكن خاليةً من الناس، ولا من الأسواق، ولا من البيوت، ولا من مظاهر العمران، ولكنها كانت خاليةً أو شبه خالية من أولي البقية؛ أي من الذين بقي فيهم من الحق ما يجعلهم قادرين على النهي عن الفساد في الأرض.

وهنا تظهر المفارقة المخيفة: قد تكون الأمة كثيرةً في عددها، ممتدةً في سلطانها، غنيةً في تجارتها، صاحبةً في عمرانها، لكنها قليلة البقية.

قد تمتلئ الطرق بالناس، والأسواق بالحركة، والمجالس بالكلام،
والمؤسسات بالوجوه، ومع ذلك يكون ما بقي فيها من الضمير الحي قليلاً،
وما بقي فيها من الشجاعة الأخلاقية ضعيفاً، وما بقي فيها من القدرة على
تسمية الفساد باسمه نادراً.

فالقرآن لا يقيس حياة الأمم بمجرد وجودها الظاهر، بل بما بقي فيها من
قابلية للحق، ومن قدرة على الإصلاح، ومن حساسية تجاه الفساد.

ومن هنا ف **أولو البقية** ليسوا طبقة اجتماعية مخصوصة، ولا جماعة تنتسب
إلى نفسها بهذا اللقب، ولا نخبة بالمعنى المتعالي الذي يظن أنه أعلى من
الناس، بل هم كل من بقي فيهم من نور الوحي وصحة الفطرة وصدق الضمير
ما يجعلهم يقفون بين المجتمع وبين انتحاره الأخلاقي. هم الذين لا تفقدهم
الكثرة توازنهم، ولا يخدعهم رواج الباطل، ولا يسلبهم الترف بصيرتهم، ولا
تمنعهم المصلحة من الشهادة بالحق، ولا يبيعون آخر ما بقي فيهم من يقظة
بثمن القبول الاجتماعي.

ولذلك جاء التعبير القرآني: **(أُولُوا بَقِيَّةٍ)**، ولم يقل مثلاً: أصحاب قوة، أو
أصحاب سلطان، أو أصحاب مال، أو أصحاب جاه.
لأن القوة إذا انفصلت عن البقية صارت بطشاً.
والسلطان إذا خلا من البقية صار استبداداً.
والمال إذا خلا من البقية صار ترفاً مفسداً.
والعلم إذا خلا من البقية صار حيلةً لتبرير الباطل.
والبيان إذا خلا من البقية صار تزييناً للانحراف.

أما البقية فهي ذلك العنصر الداخلي الذي يجعل الإنسان قادرًا على أن يبقى إنسانًا في زمنٍ يريد أن يحوله إلى تابعٍ لما حوله.

إن البقية هنا ليست مجرد صلاحٍ خاص، بل طاقة مقاومة. ليست فضيلةً ساكنةً في داخل النفس فحسب، بل قدرةً على الفعل في المجال العام.

ليست عاطفةً حزينةً ترى الفساد وتتألم، ثم تنسحب إلى عزلتها، بل بصيرةٌ تتحول إلى نهْي، ونقاءٌ يتحول إلى موقف، وإيمانٌ يتحول إلى حمايةٍ للناس من أنفسهم ومن أهوائهم ومن شبكات الفساد التي تحيط بهم.

وهذا هو السر في أن الآية لم تقف عند وصفهم بالبقية، بل بيّنت وظيفتهم مباشرةً: **(يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)**.

فمن لم يتحول ما بقي فيه من الخير إلى نهْيٍ عن الفساد، فقد يحمل شيئًا من الصلاح، لكنه لم يبلغ مقام البقية الذي تذكره الآية. ذلك أن البقية في هذا الموضع ليست لقبًا وجدانيًا، بل وظيفة إصلاحية. ليست فقط أن يبقى الخير فيك، بل أن يصبح هذا الخير مانعًا من تمدد الشر حولك بحسب قدرتك وموضعك وأدواتك.

وقد يكون الإنسان من أولي البقية وهو في بيته، إذا حفظ أهله من الانجراف، وربّى أبناءه على معنى الحياء والحق، ولم يترك البيت يستسلم لما يفسد الفطرة.

وقد يكون من أولي البقية في سوقه، إذا رفض الغش، ومنع أكل أموال الناس بالباطل، وأصرّ أن الرزق لا يطلب بخيانة الميزان. وقد يكون من أولي البقية في علمه، إذا صان الكلمة من التزوير، ولم يجعل

معرفته خادمة للهوى أو السلطان أو الشهوة.

وقد يكون من أولي البقية في كتابته، إذا لم يجمّل الباطل، ولم يساوم على المعنى، ولم يحوّل اللغة إلى ستارٍ أنيقٍ لخرابٍ قبيح.

وقد يكون من أولي البقية في منصبه، إذا جعل القوة طريقًا للعدل لا أداةً للانتقام أو الاستعلاء.

وقد يكون من أولي البقية في صمته وكلامه، إذا عرف متى يكون الصمت حكمة، ومتى يكون خيانةً ناعمةً للحق.

إن البقية ليست منصبًا، بل مقامٌ أخلاقي.

وليست ادعاءً، بل امتحانٌ متكرر.

وليست كثرة معلومات، بل بقاءٌ داخلي لميزان الحق في زمن تتعرض فيه الموازين للخلل.

ولهذا كان **أولو البقية** في كل أمةٍ هم الذين يحفظون اللغة الأخلاقية من الانقلاب.

فالفساد لا ينتصر بالقوة وحدها، بل ينتصر حين ينجح في تغيير الأسماء.

حين يُسمّى الظلم حزمًا، والخيانة ذكاءً، والترف تقدمًا، والانحلال حريةً، والجبن اتزانًا، والمداهنة حكمةً، والحق تشددًا، والنصح إزعاجًا، والإصلاح فتنةً، يكون المجتمع قد دخل مرحلةً خطيرةً من فساد الوعي، لا يكفي فيها أن توجد قلوبٌ طيبة، بل لا بد أن يوجد أولو بقية يعيدون للأشياء أسماءها، ويمنعون اللغة من أن تصير خادمةً للباطل.

فباللغة إذا فسدت سبق فسادها فساد العمل؛ لأن الإنسان لا يندفع إلى الباطل غالبًا حتى يلبسه اسمًا يحتمله ضميره.

ومن هنا كانت مهمة أولي البقية أن يمنعوا هذا التزوير الأول: تزوير الاسم قبل تزوير الفعل.

أن يقولوا: هذا ليس ذكاءً بل خيانة.

وهذا ليس تحضرًا بل تفلت.

وهذا ليس مصلحةً بل ظلم.

وهذا ليس واقعيةً بل استسلام.

وهذا ليس حريةً بل عبوديةً للهوى.

وهذا ليس ترفًا بريئًا بل تخديرٌ للروح إذا جرّ إلى البطر والغفلة ونسيان الحق.

وإذا تأملنا السياق وجدنا أن القرآن لم يصف هؤلاء بأنهم يnehون عن المعاصي الفردية فقط، بل قال: **(عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)**، وهذا يفتح المعنى على أفقٍ واسع؛ لأن البقية لا تواجه خطأً عابرًا فقط، بل تواجه اختلالًا ممتدًا في نظام الحياة. إنها ترى ما وراء الحادثة: ترى البنية التي تنتجها، والعادة التي تحميها، والمصلحة التي تغذيها، والصمت الذي يمدّها بالعمر. لذلك كان صاحب البقية أعمق من مجرد ناقدٍ غاضب؛ لأنه لا يكتفي بأن يسبّ الفساد، بل يفهم جذوره، ويكشف أسبابه، ويقطع الطريق على تحوله إلى عادةٍ اجتماعية.

وهنا ينبغي أن نفرق بين النهي بوصفه غضبًا نفسيًا، والنهي بوصفه بصيرةً شرعيةً وأخلاقية.

فليس كل من يكثر الاعتراض من أولي البقية.

وليس كل من يرفع صوته مصلحًا.

وليس كل من خاصم الناس من أجل خطأ وقع منهم قد نهى عن الفساد كما يريد القرآن.

فالنهى القرآني يحتاج إلى علم، وعدل، ورحمة، وحكمة، وشجاعة، وإخلاص.

من غير العلم يتحول النهي إلى فوضى.

ومن غير العدل يتحول إلى انتقام.

ومن غير الرحمة يتحول إلى قسوة.

ومن غير الحكمة يتحول إلى إفسادٍ باسم الإصلاح.

ومن غير الشجاعة يتحول إلى كلامٍ آمن لا يقترب من مواضع الخطر.

ومن غير الإخلاص يتحول إلى سلّمٍ للسمعة والظهور.

لذلك فإن أولي البقية ليسوا مجرد أصحاب مواقف حادة، بل أصحاب موازين.

يعرفون أن إنكار الفساد لا يعني ظلم الناس، وأن الرحمة لا تعني تمييع الحق، وأن الحكمة لا تعني تعطيل النهي، وأن الستر لا يعني حماية شبكات الظلم، وأن الصبر لا يعني الرضا بالانحراف، وأن الإصلاح لا يكون بالاندفاع الأعمى ولا بالسكوت المريض.

وهذه الدقة ضرورية؛ لأن مقام البقية مقامٌ ثقيل.

فالإنسان قد يهرب من مسؤوليته باسم الحكمة، وقد يندفع إلى الخطأ باسم الغيرة، وقد يعتزل الناس باسم السلامة، وقد يطلب التصدر باسم الإصلاح. أما القرآن فيضع الميزان: **بقيةٌ تنهى عن الفساد في الأرض.**

أي خيرٌ باقي، وبصيرةٌ فاعلة، وشجاعةٌ منضبطة، وإصلاحٌ لا يتغذى على الفوضى، ولا يساوم على الحق.

والبقية في جوهرها مقاومةٌ للذوبان.

فالإنسان محاطٌ دائماً بضغوطٍ تريد أن تسحبه إلى حيث تسير الأكثرية: ضغط العادة، وضغط الرأي العام، وضغط المصلحة، وضغط الخوف، وضغط الترف، وضغط الحاجة، وضغط الرغبة في القبول. فإذا لم يكن في داخله بقيةٌ تحفظ استقلاله، صار جزءاً من التيار وإن ظن أنه يختار. إنه لا يسقط دائماً لأنه اقتنع بالباطل، بل لأنه تعب من مقاومته. ولا يساير الفساد دائماً لأنه أحبه، بل لأنه خاف من كلفة مخالفته. ومن هنا كان أولو البقية هم الذين يملكون قدرةً على دفع هذه الضغوط؛ لأن في داخلهم مركزاً أثبت من الضجيج المحيط بهم.

وهذا المعنى يكشف أن البقية ليست شيئاً زائداً في حياة الأمة، بل هي شرط من شروط بقائها.

فكما أن الجسد قد يحمل في داخله خلايا مقاومةً لا يراها الإنسان، لكنها تحميه من المرض، كذلك الأمة لا يحفظها ظاهر العمران وحده، بل يحفظها أولئك الذين يقفون في مواضعهم المختلفة كجهاز مناعةٍ أخلاقي. قد لا يكونون الأكثر ظهوراً، ولا الأعلى صوتاً، ولا الأغنى مآلاً، لكن وجودهم يمنع الفساد من أن يطمئن، ويمنع الباطل من أن يتطبع، ويمنع المجتمع من أن يفقد الحياء من خطئه.

وإذا غاب أولو البقية وقع التحول الأخطر: لا يعود الفساد محتاجاً إلى أن يختبئ.

يخرج إلى العلن، ثم يطلب الاحترام، ثم يطلب الحماية، ثم يتهم من ينكره بأنه متخلف أو مزعج أو غير واقعي.

وهنا لا يكون المجتمع قد فسد في أفعاله فقط، بل فسد في أحكامه على الأفعال.

لم يعد يرى القبيح قبيحاً، ولا الظلم ظلماً، ولا الانحراف انحرافاً. وهذه هي المرحلة التي يخشاها القرآن: مرحلة موت الحس الأخلاقي.

إن أولي البقية هم الذين يحرسون هذا الحس.

يحرسون قدرة الإنسان على أن ينجل من الخطأ.

يحرسون قدرة المجتمع على أن يفرّق بين الرحمة والتساهل، وبين القوة والبطش، وبين الحرية والفوضى، وبين الرفاه والترّف، وبين التقدم والانحلال، وبين التسامح والتنازل عن الحق.

يحرسون تلك الحدود الدقيقة التي إذا ضاعت، لم يعد المجتمع يعرف من أين يدخل عليه الهلاك.

ومن اللطيف العميق أن القرآن قال: ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ لا أصحاب بقية فقط، لأن

لفظ أولو يشعر بحياسة راسخة للمعنى، كأن البقية صارت وصفاً ملازماً لهم، لا عاطفةً عابرةً تزورهم في لحظة حماس ثم تنصرف.

إنهم أهل بقية، لا مستعيرو بقية.

حملة معنى، لا أصحاب انفعال مؤقت.

فيهم من الرسوخ ما يجعلهم يثبتون حين تضعف الحماسات، ويواصلون حين ينفض الناس، ويحتملون كلفة الإصلاح حين يطلب الآخرون سلامة الطريق.

ولذلك نحتاج أن نفهم أن البقية ليست مجرد بقايا من الماضي، كما قد يتوهم بعض الناس، بل هي طاقة حياة للمستقبل.

قد يظن الجاهل أن أولي البقية ناس متعلقون بما مضى، يرفضون كل جديد، ويقفون ضد حركة الحياة. وهذا فهم قاصر؛ لأن البقية في القرآن ليست جموداً، بل حفظ للأصل الذي بدونه يصير التجدد انحرافاً. ليست رفضاً للعمران، بل حماية للعمران من أن ينقلب إلى فساد. ليست عداوة للحياة، بل دفاع عن الحياة من أن تُبتلع بالشهوة والقوة والترف.

فالمجتمع لا يحتاج إلى من يوقف حركته، بل يحتاج إلى من يهذب وجهته. ولا يحتاج إلى من يعادي الدنيا، بل إلى من يمنع الدنيا من أن تصير إلهاً خفياً يعبدها الناس من حيث لا يشعرون.

إن أولي البقية هم الذين يحملون الأصل في زمن الانجراف. والأصل هنا ليس ماضياً زمنياً، بل ميزان رباني: أن الإنسان عبدٌ لله، وأن الأرض أمانة، وأن القوة مسؤولية، وأن المال مختبر، وأن الحرية لا تنفصل عن العبودية لله، وأن العدل شرط العمران، وأن الشهوة إذا انفصلت عن الطهارة أفسدت، وأن العلم إذا انفصل عن الهداية تكبر، وأن الحضارة إذا انفصلت عن الأخلاق تحولت إلى آلة أنيقة لإنتاج الخراب.

وبهذا المعنى يصبح صاحب البقية إنساناً مستقبلياً لا ماضوياً؛ لأنه يحمي شرط المستقبل الصالح.

فالذين يتركون الفساد يتمدد باسم التطور لا يصنعون مستقبلاً، بل يؤجلون الانهيار.

أما الذين ينهون عن الفساد فهم الذين يمنحون المستقبل فرصة أن يكون أعدل وأنقى وأقرب إلى معنى الاستخلاف.

وليس من شرط أولي البقية أن ينتصروا في كل معركة، ولا أن يستجيب لهم الناس دائماً، ولا أن يروا ثمرة نهيم عاجلاً. فقد يكون مقامهم أن يشهدوا بالحق، وأن يمنعوا الحجة من أن تغيب، وأن يبقى في الأمة صوتٌ يقول للباطل: لست حقاً ولو غلبت. وهذه وحدها منزلة عظيمة؛ لأن المجتمعات حين تفقد الشهادة على الحق تفقد آخر صلتها بالرجوع.

إن وجود الناهي عن الفساد يمنع الناس من ادعاء الجهل الكامل. يجعل الحجة قائمة.

يبقى الطريق إلى الرجوع مفتوحاً.

يحفظ للضمير شاهداً خارجياً يوقظه كلما نام.

وقد لا يغير المصلح كل الواقع، لكنه يمنع الواقع من أن يتحول إلى معيار نهائي.

وقد لا يسقط الفساد كله، لكنه يمنعه من أن يلبس تاج القداسة الاجتماعية.

وقد لا ينقذ الجميع، لكنه يكون سبباً في نجاة من بقيت فيه قابلية النجاة.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

كأن أولي البقية غالباً قليل، لكن القلة هنا ليست عيباً في الحق، بل دليل على كلفة حمله.

فالحق إذا صار المجتمع غارقاً في الترف والفساد لا يحمله إلا من امتلك استقلالاً داخلياً نادراً.

والمصلح في زمن الانحراف لا يحتاج إلى معرفة الحق فقط، بل يحتاج إلى شجاعة دفع الثمن.

ولهذا كان القليل الناجي أعظم وزنًا من الكثرة الهالكة؛ لأن ميزان القرآن لا يزن الناس بالكثرة، بل بما يحملون من الحق.

إن من أخطر ما يصيب الأمة أن تخجل من أولي بقيتها، أو تسخر منهم، أو تجعلهم عبئًا على صورتها الحديثة، أو تتعامل مع إنذارهم كأنه نكدٌ يعكر لذة الحياة.

فإذا صارت الأمة تضيق بمن ينصحها، وتأنس بمن يخدرها، وتكرم من يزين لها فسادها، وتتهم من يوقظها، فهذه علامة عطبٍ داخلي خطير. لأن الأمة العاقلة لا تحارب جهاز مناعتها، ولا تتخلص ممن يوقظ فيها الألم قبل استفحال المرض.

قد تتألم من نصحهم، لكنها تعرف أن ألم النصيحة أرحم من صدمة الهلاك.

وفي المقابل، ينبغي لأولي البقية أنفسهم أن يعرفوا جلال مقامهم وخطره؛ فلا يفسدوا الإصلاح بسوء الخلق، ولا يجعلوا النهي تشفيًا، ولا يحولوا الغيرة إلى فظاظة، ولا يجعلوا الحق خشنًا في غير موضع الخشونة، ولا يظنوا أن مخالفة الناس وحدها دليل صوابهم.

فكما أن غياب النهي خطر، فإن فساد النهي خطر آخر.

والمصلح القرآني لا ينهى لأنه يكره الناس، بل لأنه يرحمهم.

ولا يقاوم الفساد لأنه يريد فضح الخلق، بل لأنه يريد حفظ الأرض من الخراب.

ولا يتكلم ليعلو عليهم، بل ليقوم بما أوجبه الله عليه من البيان بحسب علمه وقدرته وموقعه.

ومن هنا كان مقام أولي البقية مقامًا يجمع بين الصلابة والرحمة. صلابة في الحق، ورحمة بالخلق.

وضوح في تسمية الفساد، وعدل في التعامل مع الناس.

شجاعة في البيان، وحكمة في الطريق.

رفض للباطل، وصبر على المدعويين.

حفظ للحدود، وتجنب للظلم.

فإذا فقد المصلح رحمته صار قاسيًا، وإذا فقد صلابته صار مميعةً، وإذا فقد

علمه صار مضلاً، وإذا فقد إخلاصه صار طالب ظهور.

وهذا هو المعنى الذي ينبغي أن يستقر في قلب الكتّيب:

أن أولي البقية هم الذين بقي فيهم من صفاء الوحي ما يجعلهم قادرين على

حماية المجتمع من فسادٍ يريد أن يصبح طبيعياً.

هم ليسوا كثرةً مريخة، بل قلة ثقيلة.

ليسوا زينةً اجتماعية، بل ضرورة وجودية.

ليسوا شهوداً على الماضي، بل حراس المستقبل.

وليسوا مجرد صالحين يطلبون النجاة الفردية، بل مصلحون يحملون بعض

أعباء النجاة العامة.

وما أعظم أن يفتش الإنسان في نفسه عند هذه الآية:

هل بقي فيّ شيءٌ يقاوم؟

هل بقي فيّ من الحياء ما يجعلني لا أقبل القبيح إذا شاع؟

هل بقي فيّ من العقل ما يجعلني لا أنخدع بزينة الباطل؟
هل بقي فيّ من الدين ما يجعلني أقول كلمة الحق حين يكون الصمت أسهل؟
هل بقي فيّ من الرحمة ما يجعلني أنهى عن الفساد لا شماتةً بالناس، بل
خوفًا عليهم؟

هل بقي فيّ من الإخلاص ما يجعلني أعمل للحق ولو لم يصفق لي أحد؟
هذه الأسئلة هي المدخل الحقيقي لفهم الآية؛ لأن القرآن لا يريد منا أن نبحث
عن أولي البقية في الآخرين فقط، بل أن نسأل: هل يمكن أن نكون منهم؟
فالبقية تبدأ من الداخل قبل أن تظهر في الخارج.
تبدأ من لحظة يرفض فيها القلب أن يبيع ميزانه.
ثم تتحول إلى كلمة.
ثم إلى موقف.

ثم إلى إصلاح بحسب الطاقة.
ثم إلى شهادة على أن الفساد ليس قدرًا لا يُقاوم، وأن الترف ليس قائدًا يُتبع،
وأن الأمة لا تزال قادرة على النجاة ما دام فيها من يحمل بقيةً تنهى عن
الفساد في الأرض.

وبهذا المعنى تصبح كلمة (أُولُوا بِقِيَّةٍ) مفتاحًا لفهم الإنسان الذي يريده
القرآن في أزمنة الانحدار:
إنسانٌ لا يذوب، ولا يساوم، ولا يتوحش، ولا ينسحب، ولا يطلب الفتنة،
ولا يخاف من الإصلاح؛ إنسانٌ بقي فيه من الحق ما يجعله رحمةً صعبة،
وضميرًا يقظًا، وسدًا أخلاقيًا أمام الخراب.

فإذا كان الترف يصنع أتباعاً، فإن البقية تصنع شهوداً.
وإذا كان الفساد يبحث عن الصمت، فإن البقية تنطق.
وإذا كانت الأمم تهلك حين تفقد مناعتها، فإن أولي البقية هم علامة أن
الروح لم تمت بعد.

الفصل الثالث

الصالح والمصلح

من أعمق ما تكشفه آية ﴿أُولُوا بِقِيَّةٍ﴾ أنها لا تجعل النجاة الحضارية معلقةً بمجرد وجود الخير الفردي في أطراف المجتمع، بل بوجود خيرٍ فاعلٍ يتحول إلى إصلاحٍ ونهيٍ وممانعةٍ أخلاقية، ولهذا كان من تمام فهم الآية أن نُميّز بين **الصالح والمصلح**، لا لنقص من مقام الصلاح، فهو أصلٌ عظيم من أصول النجاة، ولكن لفهم أن القرآن حين يتحدث عن بقاء الأمم لا يكتفي بسؤال: هل فيهم صالحون؟ بل يسأل سؤالاً أشدّ: هل فيهم مصلحون؟ هل فيهم من يحمل صلاحه إلى ساحة الحياة، فيمنع الفساد من أن يصير نظاماً، والباطل من أن يصير عادةً، والظلم من أن يصير ثقافةً، والانحراف من أن يصير ذوقاً عاماً؟ ولذلك جاءت الآية التالية مباشرةً كاشفةً لهذا القانون: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.

لم يقل: وأهلها صالحون، مع أن الصلاح مطلوب وممدوح، بل قال: **مصلحون**.

وهذا فرق قرآني بالغ الدقة؛ لأن الصالح قد يحمل الخير في نفسه، أما المصلح فيحمل هم الخير في غيره.

الصالح قد يكره الفساد بقلبه، أما المصلح فيمنع الفساد بقدر طاقته.

الصالح قد يعتزل موجة الانحراف لينجو، أما المصلح فيحاول أن يردّ الموجة عن الناس.

الصالح يحفظ نفسه من الهلاك، أما المصلح فيكون جزءاً من أسباب دفع الهلاك عن المجتمع كله.

وليس معنى هذا أن كل صالحٍ مقصّر، ولا أن كل إنسان مطالبٌ أن يخوض في كل ميدان، ولا أن الإصلاح يعني الفوضى أو التصدر أو الصدام غير المنضبط، بل المعنى أن الصلاح إذا بقي محبوساً في الداخل، لا يتجاوز صاحبه إلى ما حوله، فإنه لا يصنع مناعةً عامةً للأمة. إنه ينقذ فرداً، لكنه لا يكفي وحده لإنقاذ مجتمع. وقد يكون العبد معذوراً إذا لم يقدر، أو إذا لم يحسن الوسيلة، أو إذا كان مقامه لا يسمح إلا بإنكارٍ محدود، لكن الخطر أن يتحول الانسحاب إلى مبدأ، والصمت إلى فضيلة مطلقة، والسلامة الفردية إلى بديل عن واجب الإصلاح.

إن الصالح هو النواة، والمصلح هو الشجرة.

الصالح هو النور في المصباح، والمصلح هو امتداد الضوء في المكان. الصالح يحرس قلبه من الفساد، والمصلح يحرس المجال الذي يستطيع الوصول إليه من أن يبتلعه الفساد.

والأمة لا تستغني عن الصالحين، لكنها لا تُحفظ إلا إذا خرج من صلاحهم فعلٌ إصلاحي، كلٌّ بحسب علمه وموقعه وقدرته.

من هنا نفهم لماذا كان غياب أولي البقية سبباً من أسباب الهلاك. فقد يوجد في الأمة أناسٌ طيبون لا يحبون الشر، ولا يرضون بالظلم، ولا يباشرون الفساد بأيديهم، لكنهم لا يملكون شجاعة النهي، أو لا يرون أن الفساد العام يعينهم، أو يظنون أن الاكتفاء بسلامة النفس كافٍ حين يكون المجتمع

كله في طريق الانهيار. وهذه الطيبة المنعزلة، على فضل أصلها، لا توقف خرابًا إذا صار الخراب منظومةً تتحرك في الأرض.

والقرآن حين يعلمنا هذا الفرق لا يريد أن يدفع الناس إلى ادعاء البطولة، بل إلى حمل المسؤولية.

فالإصلاح ليس بطولةً صاخبةً بالضرورة، ولا معركةً مفتوحةً في كل وقت، ولا اندفاعًا غير محسوب، بل هو أن يتحول ما في القلب من إيمانٍ وبصيرةٍ وغيرهٍ ورحمةٍ إلى أثرٍ يحمي ما حول الإنسان من الفساد. قد يكون الإصلاح كلمةً صادقة، وقد يكون تربيةً هادئة، وقد يكون موقفًا عادلاً، وقد يكون امتناعًا عن المشاركة في باطل، وقد يكون نصيحةً في موضعها، وقد يكون كتابةً تكشف الزيف، وقد يكون علمًا يصحح المفاهيم، وقد يكون حكمًا يردّ الحقوق، وقد يكون تجارةً ترفض الغش، وقد يكون بيتًا يحافظ على الفطرة وسط طوفان الانجراف.

ليس الإصلاح إذن صورةً واحدة.

إنه وظيفةٌ تتوزع على الناس بحسب مواقعهم.

فالأب مصلح في بيته إذا لم يترك أبنائه للخراب الناعم.

والأم مصلحة إذا حفظت معنى الحياء والرحمة والإيمان في نسيج البيت.

والمعلم مصلح إذا لم يجعل التعليم حشواً للمعلومات، بل بناءً للضمير

والعقل.

والكاتب مصلح إذا لم يخن الكلمة، ولم يجعل البلاغة خادمةً لتزيين الباطل.

والعالم مصلح إذا لم يبيع البيان بالمجاملة أو الخوف.

والتاجر مصلح إذا جعل الأمانة جزءاً من السوق.

والحاكم مصلح إذا ردّ القوة إلى العدل.
والشباب مصلح إذا قاوم ضغط البيئة الفاسدة ولم يجعل كثرة السائرين في
الطريق دليلاً على سلامته.

فالإصلاح ليس حكرًا على أصحاب المنابر الكبرى، وإن كان لهم نصيبهم
الثقيل، بل هو واجب موزع في جسد الأمة، كلٌّ يحمل منه بقدر استطاعته.
وإذا ضاق الناس بمفهوم الإصلاح حتى جعلوه شأنًا خاصًا بالدعاة أو العلماء
أو أصحاب السلطان وحدهم، فقد أعفوا أنفسهم من مسؤولية لا يعفيهم منها
القرآن. فالفساد حين ينتشر لا يسأل عن التخصصات وحدها، بل يتسلل إلى
البيت والسوق والكلمة والذوق والتعليم والعلاقات، ولذلك لا بد أن يكون
الإصلاح حاضرًا في هذه المواضع كلها.

لكن الفرق بين الصالح والمصلح لا يتضح إلا إذا فهمنا أن الفساد العام لا
يعيش بقوة المفسدين فقط، بل يعيش أيضًا بضعف مقاومته.
كثيرٌ من الباطل يستمد عمره لا من اقتناع الناس به، بل من صمت الذين
يعرفون بطلانه.

وكثيرٌ من الظلم يستمر لا لأن الجميع يحبونه، بل لأن كثيرين يكرهونه في
قلوبهم ثم لا يريدون أن يدفعوا ثمن الاعتراض عليه.
وكثيرٌ من الانحراف يتوسع لا لأن الفطرة ماتت في الناس جميعًا، بل لأن
الفطرة بقيت خائفةً مترددةً منعزلةً لا تملك جرأة البيان.

هنا يصبح الصالح إذا انسحب مع قدرته على الإصلاح جزءًا من مشكلة
المجتمع، لا لأنه فاسد في ذاته، بل لأن صلاحه لم يتحول إلى مناعة.
والأمة لا تحتاج فقط إلى من يتألم من الفساد، بل إلى من يمنع.

ولا تحتاج فقط إلى من يصف الانحدار، بل إلى من يوقف شيئاً منه. ولا تحتاج فقط إلى من يقول في المجالس الخاصة: لقد فسد الناس، بل إلى من يقول في موضع التأثير: هذا فسادٌ لا يجوز أن يُطبع ولا أن يُحمى ولا أن يُجمل.

ولذلك كان مقام المصلح أثقل من مقام الصالح المنعزل؛ لأن المصلح يدخل في منطقة الاحتكاك.

الصالح قد يكرهه الفساد لأنه يذكره بالنقاء، لكن المصلح يزعه لأنه يعترض طريقه.

الصالح قد يُترك في زاويته ما دام لا يهدد شبكات الباطل، أما المصلح فإنه يتعرض غالباً للأذى؛ لأنه لا يكتفي بأن ينجو من الفساد، بل يحاول أن يسحب غيره من سلطانه.

ولهذا كان تاريخ الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، تاريخ إصلاح لا مجرد صلاح؛ فقد كانوا أظهر الناس قلوباً، لكنهم لم يأتوا ليعلنوا طهارتهم الخاصة، بل جاءوا ليخرجوا الناس من عبادة غير الله إلى عبادة الله، ومن الظلم إلى العدل، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن العمى إلى الهدى.

إن نوحاً عليه السلام لم يكن صالحاً في نفسه فحسب، بل ظل يدعو قومه ليلاً ونهاراً.

وهوداً عليه السلام لم يعتزل عاداً وهو يرى بطشهم وغرورهم، بل واجه منطق القوة الكاذبة.

وصالحاً عليه السلام لم يكتف بطهارته الشخصية، بل دعا ثمود إلى عبادة الله وترك الفساد في الأرض.

ولوطاً عليه السلام لم ينسحب من قومه وهو يرى انقلاب الفطرة، بل أنكر عليهم ما لم يسبقه إليه أحد من العالمين.

وشعيباً عليه السلام لم يقل إن فساد السوق شأن التجار وحدهم، بل جعل الميزان والمكيال قضية إيمانية وأخلاقية.

وموسى عليه السلام لم يكتف بالنجاة الذاتية، بل واجه فرعون، وطلب تحرير بني إسرائيل، ووقف أمام طغيان جعل الناس طبقات.

هذه النماذج النبوية تكشف أن الوحي لا يصنع إنساناً طيباً سليباً، بل يصنع إنساناً صالحاً مصلحاً، يحمل في قلبه الرحمة، وفي لسانه البيان، وفي موقفه الشجاعة، وفي حركته مقصد الهداية. وليس المطلوب أن يتشبه كل أحد بمقام النبوة في تكليفها الخاص، ولكن المطلوب أن نفهم أن الدين حين يسكن الإنسان لا يظل محبوساً في داخله، بل يتحول إلى أثر في العالم.

ومع ذلك، فإن الإصلاح القرآني ليس فوضى باسم الغيرة. هذه نقطة لا بد من ضبطها؛ لأن بعض الناس قد يظن أن الانتقال من الإصلاح إلى الإصلاح يعني أن يطلق الإنسان لسانه في كل أحد، وأن يخاصم الناس في كل مسألة، وأن يجعل النهي عن الفساد مدخلاً إلى العنف اللفظي أو القسوة أو التعالي. وهذا خطأ؛ فالمصلح في القرآن ليس مشاعباً على الناس، بل رحيمٌ بهم. وليس طالب غلبة شخصية، بل طالب نجاة. وليس متعالياً على الخلق ببرّه، بل مشفقاً عليهم بما بقي في قلبه من نور.

الإصلاح يحتاج إلى ثلاثة أمور لا يقوم بدونها: علمٌ يميز، وعدلٌ يضبط، ورحمةٌ تقصد الهداية.

فمن نهى بغير علم قد يفسد أكثر مما يصلح.

ومن نهى بغير عدل قد ينتصر لنفسه وهو يظن أنه ينتصر للحق.

ومن نهى بغير رحمة قد يجعل الحق ثقیلاً على الناس بسبب سوء حمله له.

ولهذا فإن المصلح الحق ليس صاحب غضبٍ مجرد، بل صاحب ميزان.

يعرف موضع الكلمة، ويقدر المصلحة، ويفرق بين الجاهل والمعاند، وبين

الضعيف والمستكبر، وبين الخطأ الفردي والفساد المنظم، وبين ما يعالج

بالرفق وما يحتاج إلى حزم، وبين الصمت الحكيم والصمت الجبان.

ومن أخطر الآفات أن يختلط على الناس الصمت الحكيم بالصمت المريض.

فهناك صمتٌ يكون من الحكمة؛ حين يكون الكلام في غير موضعه، أو

حين يترتب عليه فسادٌ أعظم، أو حين يحتاج الأمر إلى إعدادٍ وتدرجٍ وحسن

تقدير.

وهناك صمتٌ يكون من الخذلان؛ حين يسكت الإنسان لأنه يخاف على

مكانته، أو يريد رضا الناس، أو لا يريد خسارة مصالحه، أو يفضل الراحة

على ثمن الحق.

والفرق بينهما يعرفه القلب الصادق غالباً، وإن حاولت النفس أن تخدع

صاحبها.

فكم من إنسان سمى خوفه حكمة، وسمى مداهنته رفقا، وسمى انسحابه

عقلاً، وهو في داخله يعلم أنه هرب من واجب كان يستطيع أن يقوم به.

ولذلك فإن الانتقال من الصلاح إلى الإصلاح يبدأ من صدق الإنسان مع

نفسه.

أن يسأل: هل أسكت لأن الكلام لا ينفع، أم لأن الكلام يكلف؟

هل أترك هذا الموقف لأنه ليس موضعي، أم لأنني لا أريد أن أخسر شيئاً؟
هل أزعم الحكمة وأنا في الحقيقة أطلب السلامة؟
هل أكره الفساد حقاً، أم فقط أكره نتائجه حين تصل إليّ؟

هذه الأسئلة شديدة، لكنها ضرورية؛ لأن أولي البقية لا يتكونون من خارج النفس، بل من لحظة صدقٍ داخلية لا تقبل التلاعب بالأسماء. فالذي يخدع نفسه في تسمية جنبه حكمة، لن يكون قادراً على تسمية فساد المجتمع باسمه. والذي يداهن داخله، سيدهن خارجه. والذي لا يقيم ميزان الحق على نفسه، لن يحسن حمله بين الناس.

وفي المقابل، يحتاج المصلح إلى أن يحذر من عجب الصلاح. فبعض الصالحين حين يتحولون إلى الإصلاح يظنون أنهم صاروا أوصياء على الخلق، وأن مجرد صحة موقفهم تعطيهم حق القسوة، وأن إنكارهم للفساد يبرر لهم ظلم المخطئين. وهذا أيضاً انحراف؛ لأن المصلح لا يخرج من عبوديته لله وهو ينهى عن معصية الله. هو مأمور بالحق والعدل معاً. بالغيرة والرحمة معاً. بالبيان والحكمة معاً.

ولا يجوز أن يتحول النهي عن الفساد إلى فسادٍ آخر في الخلق والميزان.

إن من أعظم ما يميز المصلح أنه يرى الناس مرضى يحتاجون إلى هداية قبل أن يراهم خصوصاً يحتاجون إلى هزيمة.

نعم، قد يوجد مفسدون مستكبرون يجب ردعهم وفضح باطلهم، لكن الأصل في قلب المصلح أن يحمل رحمةً واسعةً بالناس، وأن يكره الفساد لأنه

يهلكهم، لا لأنه يريد أن يثبت تفوقه عليهم.
وكلما ازداد الإنسان علمًا بالقرآن، ازداد إدراكًا أن الإصلاح ليس انتقامًا من المجتمع، بل محاولة لإنقاذه.

ومن هنا نفهم أن قوله تعالى: (وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) ليس وصفًا لشريحة غاضبة تُحسن الاعتراض فقط، بل وصفٌ لأمةٍ فيها طاقة إصلاحية عاملة، تردّ الظلم، وتصحح المسار، وتحفظ الميزان، ولا تترك الفساد يكبر بلا مقاومة. فإذا كان في القرية مصلحون بهذا المعنى، كان وجودهم سببًا في دفع الهلاك عنها؛ لأنهم يمثلون قابلية الرجوع، ويدلون على أن الضمير العام لم يمت، وأن صوت الحق لم يختف، وأن المجتمع لا يزال يحتوي في داخله قوةً تقاوم العطب.

أما إذا خلا المجتمع من المصلحين، أو ضاق بهم، أو سخر منهم، أو تركهم وحدهم حتى يُكسروا، فهذه علامة على أن الخلل لم يعد في بعض أفراده فقط، بل في روحه العامة.

فالأمة التي تحارب مصلحيها تحارب نجاتها.
والأمة التي تكرم مفسديها وتنتهم ناصحيها تكون قد قلبت ميزانها.
والأمة التي تجعل الإصلاح شأنًا خاصًا لا أثر له في الحياة العامة، تكون قد فصلت الدين عن وظيفته العمرانية، ولو أبقت له بعض طقوسه الفردية.

وهنا ينبغي أن نستعيد معنى أولي البقية من جديد.
إنهم ليسوا مجرد صالحين امتلكوا نقاءً خاصًا، بل مصلحون امتلكوا بقيةً تحولت إلى نهى.

فالبقية إذا لم تنه قد تبقى عاطفةً محترمةً في القلب، لكنها لا تؤدي وظيفتها

الكاملة في سنن المجتمعات.

والإيمان إذا لم يصنع أثرًا في مقاومة الفساد، بقي ناقص الحضور في المجال الذي يفسده الناس.

والعلم إذا لم يحم الأمة من التلبيس، صار زينةً باردةً.

والأدب إذا لم يحرس المعنى، صار ترفًا لغويًا.

والعبادة إذا لم تزك صاحبها حتى يكره الظلم والفساد، فقد فصلت عن بعض ثمارها الكبرى.

إن الإصلاح الحقيقي يحمل في داخله قابلية الإصلاح.

فإذا اكتمل وعي الصالح بمسؤوليته، لم يعد قادرًا على أن يرى الفساد كأنه شأن غيره.

يتألم، ثم يفكر، ثم يعمل بما يقدر.

لا يندفع اندفاع الجاهل، ولا يعتزل اعتزال العاجز عن الشهادة، بل يبحث عن موضعه في خريطة الإصلاح.

قد يكون موضعه صغيرًا في نظر الناس، لكنه عظيم في ميزان السنن؛ لأن الفساد لا يقاوم فقط بالمشاريع الكبرى، بل كذلك بالمواقف الصغيرة التي تمنع التطبيع معه.

كلمة حق في مجلس قد تمنع باطلاً من أن يستريح.

تربية طفل على الحياء قد تحفظ مستقبل بيت.

امتناع موظف عن ظلم إداري قد يوقف سلسلة أذى.

مقالة صادقة قد تعيد تسمية الأشياء.

موقف تاجر أمين قد يذكر السوق بأن الرزق لا يحتاج إلى خيانة.

نصيحة عالم صادق قد تردّ فتنةً عن عقول كثيرة.
رفض شابٍ لموجة فساد قد يجعل غيره يستحي من الانجراف.
هذه كلها صور من الإصلاح، وليست قليلة كما يظن الناس.
فالسنان لا تعمل دائماً عبر الأحداث الضخمة فقط، بل عبر تراكم المواقف
التي تحفظ في الأمة قابليتها للحق.
وإذا تراكمت مواقف الإصلاح، تكونت مناعة عامة.
وإذا تراكمت مواقف الصمت، تكونت قابلية الهلاك.
ومن هنا فإن الكتيب كله ينبغي أن يثبت هذه الفكرة:
أن الصالح حين يبقى صالحاً في نفسه فقط، فهو خيرٌ في ذاته، لكن المصلح
هو الذي يتحول إلى موضع نجاةٍ لغيره.
وأن الأمة إذا أرادت البقاء فلا يكفي أن تفاخر بوجود أفرادٍ طيبين فيها، بل
لا بد أن تسأل: هل طبيبتهم فاعلة؟ هل صلاحهم ينهي؟ هل إيمانهم يحمي؟
هل علمهم يكشف؟ هل أدبهم يوقظ؟ هل سلطانهم يعدل؟ هل تجارتهم
تصحح السوق؟ هل أسرهم تحرس الفطرة؟ هل خطابهم يمنع الفساد من أن
يلبس ثوباً جميلاً؟
وقد يكون من أعظم البلاء أن يكثر الصالحون الصامتون في زمن يحتاج
إلى المصلحين.
لا لأنهم بلا فضل، بل لأن المرحلة تجاوزت الاكتفاء بالسلامة الخاصة.
فإذا صار الفساد عاماً، كان الصمت العام جزءاً من امتداده.
وإذا صار الباطل منظماً، احتاج الحق إلى وعيٍ منظم.
وإذا صار الترف قائداً اجتماعياً، احتاجت الأمة إلى من يفضح قيادته

الكاذبة.

وإذا صار الظلم بنيةً، لم يكف أن يبقى العدل شعورًا في القلوب.

إن القرآن لا يريد أن يحوّل كل إنسان إلى خطيب في الناس، ولكنه يريد أن يحوّل كل مؤمن إلى موضع أمانة في موقعه.

أن يكون في مكانه مانعًا من الفساد لا جسرًا له.

أن يكون حضوره زيادة في الحق لا زيادة في الصمت.

أن يعرف أن مسؤوليته تبدأ من قدرته، وأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لكن الوسع لا يجوز أن يُصغّر بالجبن، ولا أن يُهدر بالاندفاع.

وهنا يتضح أن المصلح هو الإنسان الذي فهم أن الدين ليس نجاةً فرديةً فقط، بل حفظ لمعنى الحياة.

فحين يصلي، لا يخرج من صلاته إلى ظلم الناس.

وحين يذكر الله، لا يرضى أن تُنسى حدود الله في السوق والبيت والكلمة.

وحين يقرأ القرآن، لا يقرأه بوصفه عزاءً خاصًا فقط، بل بوصفه فرقانًا يميز به بين الحق والباطل.

وحين يحب النجاة، لا يحبها لنفسه وحده، بل يحب أن يرى الناس ينجون من الهلاك الذي يساقون إليه باسم اللذة أو القوة أو المصلحة.

وهذا هو مقام أولي البقية:

أن يبقى فيهم من الصلاح ما يجعلهم مصلحين.

ومن الخوف من الله ما يجعلهم لا يخافون الناس في الحق فوق ما ينبغي.

ومن الرحمة بالناس ما يجعلهم لا يتركونهم للفساد.

ومن البصيرة بالتاريخ ما يجعلهم يرون النهاية قبل أن تقع.

ومن الصدق مع الوحي ما يجعلهم يعرفون أن الأمة لا تُحفظ بخيرٍ معزول، بل بخيرٍ ينهى ويصلح ويقاوم.

وفي نهاية هذا الفصل يمكن أن نقول:

الصالح يحفظ نفسه من أن يكون جزءًا من الفساد، أما المصلح فيحاول أن يمنع الفساد من أن يكون قدرًا على الناس. الصالح نورٌ في ذاته، والمصلح نورٌ في الطريق. الصالح شاهدٌ على إمكان الطهارة، والمصلح شاهدٌ على وجوب المقاومة. الصالح ينجو من الموجة، والمصلح يقف في وجهها بقدر ما آتاه الله من قوة وحكمة.

والأهم لا يهلكها نقص الصالحين فقط، بل يهلكها غياب المصلحين؛ لأن الفساد إذا لم يجد من ينهى عنه، تمدد حتى يبتلع الصالحين أنفسهم أو يعزلهم عن أثرهم.

ولهذا كان سؤال الآية باقيا:

ليس فقط: هل أنت صالح؟

بل: هل في صلاحك بقيةٌ تنهى؟

هل في عبادتك أثرٌ يحمي؟

هل في علمك شجاعةٌ تكشف؟

هل في كتابتك أمانةٌ تمنع التزييف؟

هل في وجودك مقاومةٌ للفساد بحسب طاقتك؟

هل أنت من الذين يكتفون بالبكاء على خراب الأمة، أم من الذين يحملون

ولو حجرًا واحدًا في بناء مناعتها؟

فإذا صار الإصلاح إصلاحًا، صارت البقية حية.
وإذا صارت البقية حية، بقي للأمة باب نجاة.
وإذا غاب الإصلاح، لم يعد الإصلاح المنعزل كافيًا لدفع سنن الانهيار، وإن بقي لأصحابه قدرهم عند الله بحسب صدقهم وعذرهم.

إن الأمة التي تريد البقاء لا تسأل فقط عن عدد الصالحين فيها، بل عن أثرهم.

كم منهم ينهى؟

كم منهم يصلح؟

كم منهم يمنع الفساد من أن يصبح طبيعيًا؟

كم منهم يحمل في موقعه بقية لا تُشتري، ولا تُخدر، ولا تُرهب، ولا

تُستدرج؟

هناك فقط تبدأ النجاة من التحول من أمنية إلى سنة.

الفصل الرابع

النهي عن الفساد بوصفه وظيفة حضارية

حين قال الله تعالى: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ لم يجعل النهي حركةً عابرةً في هامش الحياة، ولا مجرد موقفٍ وعظيٍّ يقال عند ظهور خطأ منفرد، بل جعله وظيفةً من وظائف البقاء الحضاري؛ لأن الفساد إذا ترك بلا نهٍ تمدد، وإذا تمدد بلا مقاومةٍ تطبع، وإذا تطبع صار جزءاً من وجدان الناس وعاداتهم ومصالحهم، فإذا وصل إلى هذه الدرجة لم يعد المجتمع محتاجاً إلى من يفسدونه من خارجه؛ لأنه صار يفسد نفسه من داخله، ويهدم بنيانه بأدواته، ويتجه إلى الهلاك وهو يظن أنه يمارس حياته الطبيعية.

النهي عن الفساد في القرآن ليس رغبةً في مصادرة الناس، ولا شهوةً في السيطرة على تفاصيل حياتهم، ولا تسلطاً باسم الدين، بل هو رحمةٌ صارمة، ووظيفةٌ تحفظ للأرض صلاحها، وللإنسان إنسانيته، وللمجتمع ميزانه، وللعمران روحه؛ لأن الفساد لا يعتدي على الفرد وحده، بل يعتدي على المجال العام، وعلى الثقة، وعلى العدالة، وعلى الفطرة، وعلى قدرة الناس على العيش في فضاءٍ لا تتحول فيه القوة إلى افتراس، ولا المال إلى ابتلاع، ولا الشهوة إلى قانون، ولا المصلحة إلى إخفاء يتحاكم إليه الناس من دون ميزان الوحي والعدل.

ولهذا لم يقل القرآن: ينهون عن ذنبٍ فحسب، بل قال: ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾.

والفرق بعيد.

فالذنب قد يكون فعلاً فردياً بين العبد وربّه، له أثره على القلب وصاحبه، أما الفساد في الأرض فهو حين يخرج الانحراف من دائرة الخطيئة الخاصة إلى دائرة التخريب العام، حين يصبح الذنب ثقافةً، والظلم مؤسسةً، والغش سوقاً، والانحلال ذوقاً، والاستبداد نظاماً، والخيانة ذكاءً، والترف قيادةً اجتماعيةً، والتلاعب بالمعاني حرفةً يتقنها من يريدون تمرير الباطل في أثوابٍ ناعمة.

من هنا كان النهي عن الفساد وظيفةً حضارية؛ لأنه لا يحفظ صلاح الفرد وحده، بل يحفظ صلاح المجال الذي يعيش فيه الأفراد. فالإنسان ليس روحاً منفصلةً عن بيئتها، ولا قلباً معزولاً عن سياقه، بل يتأثر بما حوله، يتشكل باللغة السائدة، وبالقدوات المرئية، وبالعواديات المتداولة، وبما يكرمه المجتمع أو يحتقره، وبما يُسمّى نجاحاً أو فشلاً، وبما يعدّه الناس عيباً أو بطولة. فإذا فسد المجال العام، صار الصالحون أنفسهم تحت ضغطٍ مستمر، وصارت الفطرة غريبة، وصار الحق محتاجاً إلى جهدٍ مضاعف حتى يبقى ظاهراً في الضمير.

ولذلك فالنهي عن الفساد ليس نهياً عن فعلٍ فقط، بل نهياً عن مناخ. إنه محاولةٌ لمنع المجتمع من أن يعيد تشكيل حسّه الأخلاقي على مقاس الانحراف.

فحين ينتشر الغش، ثم لا يجد من ينهى عنه، يبدأ الناس بالتعامل معه كأنه مهارة.

وحين ينتشر الظلم، ثم لا يجد من يفضحه، يبدأ الناس بتسميته قوةً وحزماً.

وحين ينتشر الترف المفسد، ثم لا يجد من يكشف خداعه، يبدأ الناس بقياس القيمة الإنسانية بقدر ما يملكون ويستهلكون ويتباهون. وحين تنتشر الفاحشة، ثم لا تجد من يحفظ معنى الحياء، تبدأ الفطرة بالانكماش، ويصير المستنكر غريباً، والمستحي متخلفاً، والمندفع وراء شهوته جريئاً ومتحرراً.

هنا يصبح النهي ضرورةً، لا لأنه يضيق على الحياة، بل لأنه يحرس الحياة من أن تفسد باسم الحياة.

فالفساد لا يدخل دائماً بوجهٍ قبيح.

كثيراً ما يدخل باسم الراحة، وباسم التطور، وباسم الواقعية، وباسم المصلحة، وباسم الحرية، وباسم الذكاء، وباسم مجارة العصر. ولو دخل الفساد على الناس باسم الفساد وحده لرفضته فطر كثيرة، لكنه يدخل متنكراً في أسماء جذابة، حتى إذا استقر غير الأذواق، ثم صار هو المرجع الذي يحاكم الناس إليه الصلاح نفسه.

ومن هنا كانت مهمة أولي البقية أن يكشفوا هذا التنكر.

أن يمنعوا الفساد من سرقة الأسماء الجميلة.

أن يردوا الأشياء إلى حقائقها.

أن يقولوا إن الحرية بلا عبودية لله قد تصير عبوديةً للهوى، وإن التقدم بلا أخلاق قد يصير تقدماً في وسائل الخراب، وإن القوة بلا عدل ليست مجداً بل طغيان، وإن المال بلا أمانة ليس رزقاً مباركاً بل ابتلاءً مفسد، وإن اللذة بلا طهارة ليست اتساعاً في الحياة بل اختزالاً للإنسان في شهوته، وإن الواقعية التي تبرر الباطل ليست حكمةً بل استسلاماً مهذب.

إن النهي عن الفساد يشتغل أولاً على استعادة الاسم الصحيح. فالفساد حين ينجح في تغيير اسمه يكون قد قطع نصف الطريق إلى القبول. ولهذا كان المصلحون الحقيقيون حراساً للغة قبل أن يكونوا حراساً للسلوك؛ لأن السلوك إذا فسد بقيت له فرصة الرجوع ما دامت اللغة تكشفه، أما إذا فسدت اللغة، صار الباطل يتكلم بلسان الحق، وصار الظلم يطلب التصفيق، وصار الانحراف يطالب بالحماية، وصار الناهي عن الفساد متهمًا لا لأنه اعتدى، بل لأنه رفض الاشتراك في الكذبة العامة.

والأمة التي تفسد فيها الأسماء تفقد بوصلتها.

لا تعود تعرف من المذنب ومن الضحية، ولا من المصلح ومن المفسد، ولا من الناصح ومن المتسلط، ولا من العاقل ومن الجبان، ولا من الحر ومن عبد هواه.

فإذا انقلبت الأسماء انقلبت الأحكام، وإذا انقلبت الأحكام انقلبت الموازين، وإذا انقلبت الموازين صار المجتمع قادرًا على تدمير نفسه وهو يظن أنه يبنيها.

لذلك كان النهي عن الفساد موقفًا معرفيًا قبل أن يكون موقفًا سلوكيًا. إنه وعيٌ بماهية الفساد، وبأقنعتة، وبطرق تسلله، وبالأسباب التي تمده بالقوة.

ليس كل من رأى خطأ فهم الفساد.

قد يرى الإنسان الظاهر ولا يرى الشبكة التي خلفه.

يرى الرشوة ولا يرى ثقافة الاستحقاق الزائف التي تغذيها.

يرى الفاحشة ولا يرى انهيار معنى الحياء في التربية والذوق والإعلام.

يرى الظلم ولا يرى صناعة الخوف التي جعلت الناس يسكتون.
يرى الترف ولا يرى الفراغ الروحي الذي جعل الاستهلاك بديلاً عن
المعنى.

أما أولو البقية فينظرون إلى الفساد في جذوره، لا في ظواهره وحدها.

وهنا يتبين أن النهي ليس مجرد كلمة: لا تفعل.

بل قد يكون بناءً طويلاً للوعي، وإصلاحاً للبيئة، وتربيةً للذوق، واستعادةً
للمفاهيم، وكشفًا للزيف، وإحياءً للفطرة، وتقويةً للناس على مقاومة الضغط
العام.

فمن نهى عن الفساد دون أن يبني بديلاً من المعنى قد ينجح في إدانة
الباطل، لكنه لا ينجح دائماً في إخراج الناس منه.
والناس لا يتركون فساداً أحبوه أو اعتادوه إلا إذا رأوا حقاً أقوى، ومعنى
أعمق، وطريقاً أنقى، وكرامةً أعلى.

لذلك لا يكون النهي القرآني مجرد تحريم جاف، بل إدخالاً للإنسان في أفق
الصالح.

حين ينهى القرآن عن الفساد، فهو يفتح للإنسان باب العمران الحق.

حين ينهى عن الظلم، يردّ الناس إلى العدل.

وحين ينهى عن البخس في الميزان، يربط السوق بالأمانة.

وحين ينهى عن الفاحشة، يحفظ الأسرة والحياء والفطرة.

وحين ينهى عن الطغيان، يحمي كرامة الإنسان من التآله البشري.

وحين ينهى عن الترف المفسد، يعيد النعمة إلى معنى الشكر لا معنى

البطر.

فالنهي في جوهره ليس منعًا للحياة، بل حمايةً لشروط الحياة الصالحة. والذين يتوهمون أن النهي عن الفساد عداوةٌ للحرية لا يدركون أن الفساد إذا تُرك بلا نهْيٍ صنع عبوديةً أعمق من كل قيد؛ عبوديةً للشهوة، وللمال، وللخوف، وللناس، وللصورة الاجتماعية، وللسوق، وللسلطة، ولما أُتُرف فيه الظالمون.

والحرية التي لا يحرسها الحق تتحول إلى طريقٍ ناعمٍ نحو الاستعباد الداخلي.

إن الإنسان لا يحتاج إلى من يتركه يسقط باسم احترام اختياره، بل يحتاج إلى من يذكره بكرامته حين تنخفض رغباته.

ولا يحتاج المجتمع إلى من يبارك كل انحدارٍ باسم التطور، بل إلى من يميز بين التطور الذي يخدم الإنسان، والانحدار الذي يستهلكه.

ولا تحتاج الأمة إلى خطابٍ يعتذر للفساد، بل إلى خطابٍ يحسن فهمه ثم يحسن مقاومته.

ومن هنا فإن النهي عن الفساد لا ينفصل عن الرحمة.

فالمصلح حين ينهى لا يفعل ذلك لأنه أضيق صدرًا بالحياة، بل لأنه أوسع نظرًا في العاقبة.

يرى ما لا يراه المستغرق في اللحظة.

يرى آخر الطريق حين ينشغل الناس ببريق أوله.

يرى أن الرشوة الصغيرة إذا سكت عنها الناس صارت سوقًا للحقوق.

وأن الكذبة إذا جُمِلت صارت ثقافةً للنجاح.

وأن الفاحشة إذا طُبعت صارت هدمًا للحياء.

وأن الترف إذا قاد صار مخدرًا للضمير.

وأن الظلم إذا استقر صار قضاءً اجتماعيًا على الضعفاء.

فالمصلح ليس عدوًا للناس، بل عدوٌ لما يهلك الناس.

ليس خصمًا للفرح، بل خصمٌ للفرح المزيف الذي يبتلع الروح.

ليس كارهاً للجمال، بل كارهٌ للجمال حين يتحول إلى غوايةٍ منفصلةٍ عن الحق.

ليس منزعًا من النعمة، بل منزعٌ من النعمة حين تصير بطرًا وغفلةً واستعلاء.

وليس ضد العمران، بل ضد العمران الذي يعلو في الحجر وينهار في الإنسان.

وهنا نحتاج إلى تحرير معنى النهي من صورتين مشوهتين:

صورة النهي المتسلط الذي لا يعرف إلا القسوة، وصورة النهي الغائب الذي يستحي من الحق.

الأولى تفسد الإصلاح بسوء حمله، والثانية تفسد المجتمع بتركه.

فالنهي المتسلط يجعل الناس يكرهون الحق بسبب غلظة حامله، والنهي الغائب يجعل الناس ينسون الحق بسبب جبن أهله.

والمنهج القرآني لا يقبل هذا ولا ذاك.

إنه يريد نهياً بصيراً، عادلاً، رحيماً، واضحاً، شجاعاً، لا يخاف من تسمية الفساد باسمه، ولا يظلم الإنسان المخطئ، ولا يساوم المفسد المستكبر، ولا يحول الإصلاح إلى شهوة انتقام.

من أجل ذلك كان النهي عن الفساد يحتاج إلى فقهٍ عميق في مراتب الفساد ومرتب الخطاب.

ليس كل خطأ يعالج بالطريقة نفسها.

وليس كل مقام يصلح فيه التشهير.

وليس كل ساكتٍ جبانًا.

وليس كل متكلمٍ شجاعًا.

وليس كل حدةٍ قوةً.

وليس كل رفيقٍ مDAHنة.

إنما الميزان أن يكون القصد وجه الله، وأن يكون العلم حاضرًا، وأن يكون العدل حاكمًا، وأن تكون الرحمة باقية، وأن تكون النتيجة أقرب إلى الإصلاح لا إلى مضاعفة الفساد.

وهذا من أشد المواضع صعوبة؛ لأن المصلح يمشي بين طرفين خطرين: طرف التنازل وطرف التهور.

إن تنازل كثيرًا ذاب الحق في يده.

وإن تهور كثيرًا أفسد الطريق إلى الحق.

إن خاف الناس أكثر مما ينبغي ضاعت رسالته.

وإن احتقر الناس ضاعت رحمته.

إن ساير الواقع بلا ميزان صار جزءًا منه.

وإن جهل الواقع لم يحسن تغييره.

لذلك احتاج أولو البقية إلى بصيرة مركبة: بصيرة بالوحي، وبصيرة

بالإنسان، وبصيرة بالواقع، وبصيرة بالسنن، وبصيرة بالنفس حتى لا تخدع صاحبها باسم الإصلاح.

النهي عن الفساد إذن ليس وظيفَةً سهلة.

إنه مقامٌ ثَقِيلٌ لأنه يتعامل مع مقاومةٍ شديدة.

فالفساد حين يستقر لا يبقى فعلاً منفرداً، بل يصير له مستفيدون، ومدافعون، ومبررون، وجمهورٌ اعتاده، ولغةٌ تحميه، ومصالح تخاف من زواله. ولهذا يواجه المصلح غالباً اتهاماتٍ جاهزة: يقال له إنك تعطل الحياة، أو لا تفهم العصر، أو تبالغ، أو تثير الفتنة، أو تريد أن تعيد الناس إلى الوراء، أو لا تعرف الواقعية.

وهذه الاتهامات ليست جديدة؛ فهي منطق كل فسادٍ يريد أن يبقى بلا إزعاج.

لكن المصلح القرآني لا يخاف من كل تهمة، ولا يستهين بها كذلك. يفحص نفسه: هل هو فعلاً جاهل بالواقع؟ هل في خطابه غلظة؟ هل في طريقته خلل؟ هل ينهى عن فسادٍ وهو يقع في فسادٍ آخر؟ فإن وجد عيباً أصلحه، وإن وجد التهمة مجرد حيلةٍ لإسكاته مضى في طريقه. لأن من شروط أولي البقية أن لا يتوقفوا عند ضجيج الباطل، ولا يتركوا الحق لمجرد أن المفسدين نجحوا في تشويه حامله.

والنهي عن الفساد يبدأ من موضع الإنسان.

ليس مطلوباً من كل أحد أن يحمل عبء الأمة كلها، لكن مطلوبٌ من كل أحد ألا يكون ممراً للفساد حيث يستطيع أن يمنعه.

في بيته، في كلمته، في عمله، في صداقاته، في ماله، في منصبه، في علمه، في تربيته، في كتابته، في حضوره الاجتماعي.

كل موضعٍ للإنسان فيه قدرة هو موضع أمانة.

ومن الخطأ أن يحتقر الإنسان أثره لأنه صغير؛ فكثيرٌ من الفساد بدأ بتنازلٍ

صغير، وكثيرٌ من الإصلاح بدأ بموقفٍ صغير ثبت فيه صاحبه حين استسهل الناس السقوط.

إن الأب الذي يمنع بيته من الانجراف يمارس نهياً عن الفساد.
والمعلم الذي يصحح معنى النجاح في عقول طلابه يمارس نهياً عن الفساد.
والكاتب الذي يكشف زيف المفاهيم يمارس نهياً عن الفساد.
والتاجر الذي يرفض الغش يمارس نهياً عن الفساد.
والقاضي الذي لا يبيع حكمه يمارس نهياً عن الفساد.
والشاب الذي لا يشارك في تطبيع القبيح يمارس نهياً عن الفساد.
والعالم الذي يقول الحق في موضع الحاجة يمارس نهياً عن الفساد.
والأمة التي تتكامل فيها هذه المواقع تصنع مناعةً واسعة لا تقوم على شخص واحد، بل على شبكةٍ من الضمائر الحية.

وهذا هو المعنى الحضاري للنهي: أن يصبح الإصلاح قوةً موزعةً في جسد المجتمع، لا مجرد خطبةٍ عابرة.
فإذا كان في كل موضعٍ من يمنع الفساد بقدر طاقته، لم يستطع الفساد أن يستولي على المجال كله.
قد يوجد، لكنه يجد مقاومة.
قد يتسرب، لكنه يجد من يكشفه.
قد يتزين، لكنه يجد من يفضحه.
قد يستقوي، لكنه لا يشعر أنه صار هو الأصل.

أما إذا خلا كل موضعٍ من ناهٍ، فإن الفساد يتصل بعضه ببعض حتى يصير شبكةً كاملة.

فساد البيت يمد فساد المدرسة.
وفساد المدرسة يمد فساد السوق.
وفساد السوق يمد فساد السلطة.
وفساد السلطة يحمي فساد المال.
وفساد المال يشتري فساد الكلمة.
وفساد الكلمة يبرر فساد الذوق.
ثم تستيقظ الأمة بعد زمنٍ فتجد نفسها أمام خرابٍ مركبٍ لا تعرف من أين
بدأ، لأنه لم يبدأ من مكانٍ واحد، بل من سلسلة صمتٍ طويلة.

ومن هنا فإن النهي عن الفساد هو قطعٌ لهذه السلسلة.

أن يقول واحدٌ في موضعه: لا.

لا أشارك.

لا أجمل.

لا أبرر.

لا أبيع كلمتي.

لا أخون أمانتي.

لا أجعل مصلحتي فوق الحق.

لا أترك من هم في مسؤوليتي للانجراف.

لا أسمي الخراب عمراً.

لا أصفق للباطل لأنه غالب.

لا أخجل من الحق لأنه صار غريباً.

هذه الـ لا ليست كلمةً سلبية، بل هي أصلٌ في حماية المعنى.
فكما أن الإيمان يبدأ بنفي وإثبات، لا إله إلا الله، كذلك الإصلاح يحتاج إلى
نفيٍ شجاعٍ للباطل وإثباتٍ واضحٍ للحق.
والأمة التي تفقد قدرتها على قول لا للفساد تفقد قدرتها على قول نعم
للسلاح؛ لأن القبول المطلق بكل شيء ليس رحمة، بل ذوبان.

لكن هذه الـ لا يجب أن تكون ربانيةً لا نفسية.
تخرج من عبودية الله لا من كبرياء الذات.
تريد الإصلاح لا مجرد المخالفة.
تحمل الحق لا الحقد.
تعرف أن الناس ليسوا سواء.
وتعرف أن بعض المخطئين يحتاجون إلى يدٍ تنتشلهم، وبعض المفسدين
يحتاجون إلى موقفٍ يردعهم، وبعض المواضع تحتاج إلى بيان، وبعضها
إلى ستر، وبعضها إلى صبر، وبعضها إلى مواجهة.
وهذا كله لا يفقهه إلا من جمع بين حرارة الإيمان وبرودة العقل، بين حياة
الضمير وحسن التقدير.

إن النهي عن الفساد وظيفة حضارية لأنه يحفظ المسافة بين الأمة والهلاك.
كلما بقي النهي بقيت إمكانية الرجوع.
كلما بقي من يقول للناس: هذا الطريق خطر، بقيت الحجة قائمة.
كلما بقيت في الأمة أصواتٌ صادقة تكشف الباطل، لم يستطع الباطل أن
يحتكر الوعي.
كلما بقي أولو بقية، بقيت في الجسد خلايا مقاومة.

فإذا أسكت هؤلاء أو سكتوا، اتسعت المسافة بين الأمة والحق، وضافت المسافة بينها وبين الهلاك.

وهذا المعنى يفسر لماذا ارتبطت النجاة في الآية بالقليل الذي نهى، لا بالكثرة التي اتبعت ما أترفت فيه.
فالنجاة ليست مع التيار دائماً.

قد يكون التيار واسعاً لكنه ذاهبٌ إلى الهاوية.
وقد يكون الناهي قليلاً لكنه واقفٌ على الجادة.
وقد يكون المصلح غريباً في زمنه، لكنه هو الذي يحمل المستقبل الحقيقي؛
لأن المستقبل لا يبنى على فسادٍ مؤجل، بل على صلاحٍ مقاوم.

ومن لطائف المعنى أن النهي عن الفساد في الأرض يدل على أن الأرض لها حقٌّ على الإنسان.

ليست الأرض مجرد مسرحٍ لرغبات البشر، بل موضع أمانة.
والإنسان حين يفسد فيها يخون معنى الاستخلاف.

يفسد حين يظلم، ويفسد حين يبخس، ويفسد حين يقطع الأرحام، ويفسد حين يشيع الفاحشة، ويفسد حين يعبد المال، ويفسد حين يطغى، ويفسد حين يعبت بالعقول، ويفسد حين يحول نعم الله إلى أدوات بطرٍ وغفلة.
والنهي عن الفساد هو دفاعٌ عن أمانة الأرض قبل أن يكون دفاعاً عن صورة المجتمع.

فالأرض لا تصلح بكثرة الأبنية وحدها.

قد تعلو الأبراج والضمائر منهارة.

وقد تتسع الطرق والقلوب ضيقة.

وقد تزدهر الأسواق والأمانة مفقودة.
وقد تتقدم الوسائل والغايات منحطة.
وقد يكثر التعليم والحكمة غائبة.
وقد يزداد المال والبركة منزوعة.
العمران القرآني ليس حجرًا بلا روح، ولا اقتصادًا بلا عدل، ولا معرفةً بلا هداية، ولا قوةً بلا تقوى.
ولهذا كان الفساد في الأرض نقضًا للعمران الحقيقي، ولو لبس ثوب العمران الظاهر.

وإذا أردنا أن نختصر الفصل كله قلنا:

النهى عن الفساد هو جهاز المناعة في جسد الأمة.
إذا اشتغل هذا الجهاز تألم المجتمع أحيانًا، لكنه يبقى حيًا.
وإذا تعطل، قد يشعر المجتمع براحة مؤقتة، لأنه لم يعد يسمع صوتًا يزعجه، لكنه يكون قد دخل في أخطر أنواع المرض: المرض الذي لا يشعر صاحبه بألمه.

إن الألم الذي يصنعه المصلح في ضمير الأمة أرحم من السكينة الكاذبة التي يصنعها المفسدون.

وصوت الناهي، وإن بدا مزعجًا، أصدق رحمةً من صوت المزيّن الذي يرافق الناس إلى الهاوية بكلماتٍ ناعمة.

والأمة العاقلة لا تطلب إسكات من يوقظها، بل تسأل: ما الذي جعل هذا الصوت ضروريًا؟

ولا تغضب من المرأة لأنها كشفت عيب الوجه، بل تغسل وجهها.

ولا تحارب طبييها لأنه أخبرها بالمرض، بل تشكره إن صدق ونصح وأحسن العلاج.

وهكذا نعود إلى الآية: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾.

كأنها تقول: أين جهاز المناعة؟

أين الذين يمنعون المرض من الانتشار؟

أين الذين يحفظون للأرض صلاحها؟

أين الذين يمنعون الترف من قيادة الظالمين؟

أين الذين لا يكتفون بأن يكونوا أنقياء في أنفسهم، بل يصيرون حواجز

رحيمة بين الناس وبين الخراب؟

إن النهي عن الفساد ليس ترفاً دعوياً، ولا وظيفة هامشية، ولا خطاباً يصلح

لأوقات الفراغ، بل هو من صميم بقاء الأمم.

فإذا حضر، حضرت إمكانية النجاة.

وإذا غاب، صار الفساد أجراً، والترف أقوى، والحق أغرب، والهلاك

أقرب.

ومن أجل ذلك كان أولو البقية هم أكثر الناس إحساناً إلى مجتمعاتهم، ولو

كرهتهم تلك المجتمعات أول الأمر؛ لأنهم لا يقدمون لها ما تشتهي دائماً، بل

ما تحتاج إليه.

لا يعطونها المخدر، بل الدواء.

لا يزينون لها الطريق المنحدر، بل يوقفونها عند حافته.

لا يصفقون لسقوطها، بل يمدون إليها يداً قد تبدو خشنةً لكنها أرحم من كل يدٍ ناعمةٍ تدفعها إلى الهاوية.

فالنهى عن الفساد، في حقيقته، هو رحمةٌ تقاوم، وبصيرةٌ تتكلم، وضميرٌ لا يسمح للخراب أن يصير مألوفاً.

الفصل الخامس

الفساد في الأرض: من الذنب الفردي إلى الخراب العام

لا يبلغ معنى قوله تعالى: **(يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)** تمامه إلا إذا أدركنا أن القرآن حين يتحدث عن الفساد لا يقصره على المعصية الفردية المحدودة، ولا يجعله مجرد خللٍ عارضٍ في سلوك شخصٍ بعينه، بل يفتح به باباً واسعاً لفهم اختلال الحياة حين تخرج عن ميزان الله، وحين تنفصل القوة عن العدل، والمال عن الأمانة، واللذة عن الطهارة، والعلم عن الهداية، والعمران عن المعنى، والحرية عن العبودية لله، فإذا بذلك كله يتحول من مظاهر حياةٍ إلى أدوات تخريبٍ ناعم أو صريح، يفسد الأرض والإنسان معاً.

فالذنب الفردي قد يقع من الإنسان ضعفاً، ثم يبقى في قلبه حياءً منه، وانكساراً بعده، ورجاءً في التوبة منه، ومعرفةً بأنه خروجٌ عن الصواب؛ وهذا وإن كان ذنباً يحتاج إلى استغفارٍ ورجوع، إلا أن صاحبه لا يزال يحمل في داخله ميزاناً يفرّق به بين الحق والباطل. أما الفساد في الأرض فهو درجةٌ أوسع وأخطر: أن يتجاوز الخطأ حدود الفرد، وأن يفقد صفة الحياء، وأن يخرج من السرّ إلى العلن، ومن العن إلى الاعتیاد، ومن الاعتیاد إلى الحماية، ومن الحماية إلى التنظير، حتى يصير الفساد نظاماً، وثقافةً، ومصلحةً، وسوقاً، ولغةً، وشبكةً من العلاقات التي تدافع عنه وتستفيد منه.

وهذا هو الفرق بين مجتمعٍ يقع فيه الخطأ، ومجتمعٍ يتبنى الفساد. الأول لا يخلو من الضعف الإنساني، لكنه لا يزال يعرف أن الضعف ضعف.

أما الثاني فقد دخل منطقةً أخطر؛ لأنه لم يعد يخطئ فقط، بل صار يعيد تعريف الخطأ حتى يجعله مقبولاً، ثم يضغط على الناس لئلا ينكروه، ثم يتهم المنكرين بأنهم لا يفهمون الحياة.

من هنا كان التعبير القرآني: **(الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ)**، لا الفساد في النفس وحدها.

لأن المقصود فساداً خرج من باطن الإنسان إلى نظام العيش، وأصاب الأرض بوصفها مجال الاستخلاف.

فالإنسان لم يُجعل في الأرض عبثاً، ولم تُعطَ له القدرة ليحولها إلى ساحة شهوةٍ وظلمٍ وبغي، بل وُضع فيها ليعمرها بالحق، ويقيم فيها العدل، ويحفظ فيها الفطرة، ويجعل القوة خادمةً للخير لا متألهةً على الضعفاء. فإذا انقلبت هذه الأمانة، صار الفساد في الأرض خيانةً لمعنى الوجود نفسه.

والقرآن حين يصف الفساد في الأرض يربطه بصورٍ كثيرة، بعضها ظاهرٌ في الاعتقاد، وبعضها في الأخلاق، وبعضها في المال، وبعضها في الحكم، وبعضها في العلاقات، وبعضها في الذوق العام. وهذا الاتساع مقصود؛ لأن الفساد لا يأتي من بابٍ واحد. قد يدخل من باب الشبهة، وقد يدخل من باب الشهوة، وقد يدخل من باب القوة، وقد يدخل من باب السوق، وقد يدخل من باب الفن والذوق واللغة، وقد يدخل من باب العلم إذا انفصل عن الهداية، وقد يدخل من باب التدين نفسه إذا فصل عن العدل والرحمة والبصيرة.

إن الفساد العقدي هو أن ينحرف الإنسان عن أصل العبودية لله، فيمنح غير الله حق التشريع المطلق، أو يجعل الهوى قائداً، أو يتعامل مع الوجود كأنه بلا ربٍّ ولا غايةٍ ولا حساب. وهذا هو أصل كل فسادٍ عميق؛ لأن الإنسان

إذا فقد معنى العبودية فقد ميزان نفسه، وإذا فقد ميزان نفسه صار قادرًا على أن يبرر أي شيء يخدم رغبته أو قوته أو مصلحته. فالفساد يبدأ غالبًا من لحظة نسيان المقام: مقام العبد أمام ربه، ومقام الإنسان في أرض ليست ملكًا مطلقًا له، بل أمانة يُسأل عنها.

والفساد الأخلاقي هو أن تتغير موازين الحسن والقبح في المجتمع، فلا يعود الحياء فضيلةً، ولا الصدق قوةً، ولا العفاف كرامةً، ولا الوفاء مروءةً، بل تصير الأخلاق عبئًا على من يحملها، ويصير التقلت ذكاءً اجتماعيًا، وتصير الجراءة على الحدود بطولةً زائفةً. وحين يفسد الخلق العام، لا يحتاج الباطل إلى كثير برهان؛ لأن الذوق نفسه يكون قد تغير، والإنسان إذا تغير ذوقه الأخلاقي صار يستثقل الحق لا لأنه لم يفهمه، بل لأنه صار غريبًا عن رغبته.

والفساد المالي هو أن يتحول المال من رزقٍ ومسؤوليةٍ واختبارٍ إلى أداة افتراس. يظهر في الغش، والربا، والرشوة، والاحتكار، وبخس الحقوق، وأكل أموال الناس بالباطل، واستغلال الحاجة، وتحويل السوق إلى غابةٍ أنيقة لا ينجو فيها إلا الأقوى حيلةً أو الأقدر على التلاعب. وهذا الفساد المالي ليس شأنًا اقتصاديًا فقط، بل شأنٌ روحي واجتماعي؛ لأنه يقتل الثقة، ويجعل الإنسان يرى أخاه فرصةً للاستغلال لا شريكًا في الأمانة، ويحوّل الرزق من باب شكرٍ إلى باب طغيان.

والفساد السياسي هو أن تنفصل القوة عن العدل، وأن يتحول السلطان من أمانةٍ إلى امتياز، ومن خدمةٍ إلى استعلاء، ومن حفظٍ للحقوق إلى صناعةٍ للخوف. وإذا فسد الحكم، اتسع الفساد؛ لأن القوة التي كان ينبغي أن تحمي

الميزان تصير حاميةً للاختلال. وهنا يبلغ الفساد درجةً خطيرة، لأن المظلوم لا يواجه فردًا فاسدًا فقط، بل يواجه بنيةً تجعل الظلم ممكنًا ومكررًا ومسنودًا. ولذلك كانت قصص الطغيان في القرآن ليست قصص أشخاص متجبرين فحسب، بل قصص أنظمةٍ جعلت الإنسان طبقات، وأضعفت المستضعفين، وادعت لنفسها من الحق ما ليس لها.

والفساد الاجتماعي هو أن تتفكك الروابط التي تحفظ المجتمع: الرحم، والجار، والأسرة، والثقة، والنصيحة، والمروءة، والتكافل، والحياء المتبادل. فإذا صار الإنسان لا يرى إلا نفسه، ولا يقيس الأشياء إلا بمنفعته، ولا يبالي بما يتركه فعله من جرح في غيره، فذلك فسادٌ يمزق نسيج الأمة من الداخل. وقد تبدو البيوت قائمة، لكن المعنى الذي يجعلها بيوتًا يكون قد ضعف. وقد تبدو المجالس عامرة، لكن الصدق الذي يجعلها مجالس رحمةٍ ونصح يكون قد غاب. وقد يبدو الناس قرييين في الصورة، لكنهم بعيدون في الأمانة.

والفساد المعرفي هو أن تنفصل المعرفة عن الحق، فيصير العلم أداةً للغرور، والذكاء وسيلةً للمكر، والفكر صناعةً للتبرير، واللغة ستارًا لإخفاء الباطل. وهذا من أخطر أنواع الفساد؛ لأن صاحبه لا يأتيك بوجه الجاهل، بل بوجه العارف الذي يستخدم قدرته على البيان ليهدم الموازين أو يميعها أو يلبس على الناس دينهم ودنياهم. فإذا فسد العقل المتعلم، صار فسادُه أبلغ أثرًا من فساد الجاهل؛ لأن الجاهل قد يخطئ في موضع، أما صاحب المعرفة إذا خان أمانتها فقد يصنع للخطأ فلسفةً ومنهجًا وشرعيةً زائفة.

والفساد الجمالي والذوقي هو أن يتحول الجمال من بابٍ للتهذيب والسمو إلى بابٍ للغواية والانحدار، وأن تصبح الصورة أقوى من الحقيقة، والمشهد أغلى

من المعنى، والزينة بديلاً عن الجوهر. وهذا الفساد ناعمٌ لكنه شديد الأثر؛ لأنه لا يهاجم العقل مباشرةً، بل يعيد تشكيل الحس. يجعل القبيح مألوفاً بكثرة عرضه، ويجعل الفاحش لطيفاً بحسن إخراجهِ، ويجعل العبث عميقاً بمجرد تغليفهِ بالرمز، ويجعل الاستهلاك هويةً نفسيةً لا مجرد فعلٍ عابر. فإذا فسد الذوق، صار الإنسان يقبل ما كان يستحي منه، ويستثقل ما كان يجله.

وهذه الصور كلها لا تعمل منفصلةً في الواقع، بل يتغذى بعضها من بعض.

فساد المال يشتري فساد الكلمة.

وفساد الكلمة يبرر فساد السياسة.

وفساد السياسة يحمي فساد السوق.

وفساد السوق يغذي الترف.

والترف يخدر الضمير.

وتخدير الضمير يضعف النهي.

وضعف النهي يتيح للفساد أن يتحول إلى مناخٍ عام.

وهكذا لا يصبح الفساد حادثَةً، بل دورةً كاملةً يعيد كل جزءٍ فيها إنتاج

الجزء الآخر.

من هنا كان النهي عن الفساد في الأرض أعظم من مجرد توجيهٍ أخلاقي

لطيف؛ إنه مقاومةٌ لهذه الدورة قبل أن تكتمل.

فأولو البقية لا ينظرون إلى الرشوة بوصفها مبلغاً دفع فقط، بل يرون معها

الحق الذي ضاع، والثقة التي تهدمت، والفقير الذي أهين، والمؤسسة التي

فسدت، والجيل الذي تعلّم أن الطريق لا يفتح إلا بالباطل.

ولا ينظرون إلى الكذب بوصفه كلمةً قيلت فقط، بل يرون معه انهيار

الأمان، واختلال الثقة، وانتشار الريبة، وتحول العلاقات إلى سوقٍ من الأفتنة.

ولا ينظرون إلى الترف بوصفه إنفاقاً زائداً فقط، بل يرون معه قلباً أفرغ من المعنى، ومجتمعاً يقيس الإنسان بما يستهلك، وغفلةً تتراكم حتى تمنع سماع الحق.

ولا ينظرون إلى الفاحشة بوصفها شهوةً فرديةً فقط، بل يرون معها تفكك الأسرة، وانكسار الحياء، وتحويل الإنسان إلى جسدٍ مستهلك، وتغيير الفطرة باسم الحرية.

إن المصلح القرآني عميق النظر؛ لأنه يرى العواقب في البدايات. يرى أن الفساد لا يظهر أولاً في صورته النهائية، بل يبدأ صغيراً، مقبولاً، قابلاً للتبرير. يبدأ بتنازلٍ في الاسم، ثم بتنازلٍ في الحكم، ثم بتنازلٍ في الموقف، ثم بعد زمنٍ يصير الاعتراض عليه هو المستغرب. ولذلك كان أولو البقية ينهون مبكرًا؛ لأنهم يعرفون أن الفساد إذا بلغ مرحلة الاعتیاد صار اقتلاعه أصعب، وإذا التصق بالمصالح صار أصعب، وإذا دخل في الهوية صار أصعب، وإذا حُمي باللغة والفن والقانون والعادة صار كأنه قدرٌ اجتماعي.

وهذا ما يجعل كثيرًا من الناس يسيئون فهم المصلحين. يظنونهم يبالغون لأنهم ينظرون إلى الفعل في لحظته الصغيرة، أما المصلح فينظر إلى ما سيصير إليه إذا ترك.

يرى الناس الشرارة، ويرى هو الحريق الممكن. يرى الناس النكتة العابرة، ويرى هو سقوط الحياء إذا تكررت.

يرى الناس الغش اليسير، ويرى هو سوقاً يفقد الأمانة.
يرى الناس مجاملةً في الحق، ويرى هو بداية خيانةٍ للميزان.
يرى الناس ترفاً مسلياً، ويرى هو روحاً تتعود الفراغ وتنسى الآخرة.

وليس هذا من التشاؤم، بل من فقه السنن.
فالقرآن يعلمنا أن الهلاك لا يقع فجأة، بل يتكون.
يتكون من صغائر تُحتقر، ومن إنكارات تُؤجل، ومن أسماءٍ تُزور، ومن
مواقف تُساوم، ومن أصواتٍ تصمت، ومن مترفين يقودون الذوق، ومن
ظالمين يجدون من يتبع ما أترفوا فيه.
ثم حين تقع النتيجة يظن الناس أنها نزلت بغتة، مع أنها كانت تُصنع أمامهم
زمنًا طويلاً.

وهنا تتجلى دقة الربط بين الآيتين: **(يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)**
ثم: **(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ)**.

فالفساد في الأرض لا ينفصل عن الترف حين يتحول الترف إلى قيادة. ذلك
أن المترف المفسد لا يريد من المجتمع أن يصحو؛ لأن صحوته تهدد لذته.
ولا يريد من المعنى أن يحضر؛ لأن المعنى يكشف خواءه. ولا يريد من النهي
أن يرتفع؛ لأن النهي يحرمه متعة التمتع بلا حساب. ولهذا يقاوم المترفون
غالبًا صوت الإصلاح، لا لأنهم لا يفهمونه، بل لأنهم يفهمون أن الإصلاح
سيعيد ترتيب الحياة على ميزانٍ لا يخدم أهواءهم.

ولذلك كان الفساد في الأرض محتاجًا دائمًا إلى غطاءٍ ثقافي.
لا يكفي المفسد أن يفعل، بل يريد أن يُبرّر فعله.
لا يكفي الظالم أن يظلم، بل يريد أن يسمى ظلمه حكمةً أو ضرورةً أو أمناً

أو مصلحة.

لا يكفي المترف أن يغفل، بل يريد أن تسمى غفلته نجاحًا ورقياً.

لا يكفي صاحب الشهوة أن ينحرف، بل يريد أن يسمى انحرافه تحرراً.

لا يكفي الفاسد مالياً أن يأكل، بل يريد أن تسمى حيلته ذكاءً.

وهنا يصبح فساد اللغة جزءاً من فساد الأرض؛ لأن الأرض لا تفسد

بالأفعال وحدها، بل بالأفكار التي تسوغ الأفعال.

ولذلك فإن من أعظم صور النهي عن الفساد أن تمنع هذا الغطاء من

الاكتمال.

أن يبقى في الناس من يقول: لا.

ليس هذا نجاحاً بل بطر.

ليس هذا ذكاءً بل خيانة.

ليس هذا تقدماً بل انحدار.

ليس هذا حرماً بل ظلم.

ليس هذا جمالاً بل غواية.

ليس هذا واقعيةً بل بيعٌ للحق بثمن الراحة.

هذه التسمية الصحيحة قد تبدو بسيطة، لكنها تقطع على الفساد طريقه إلى

الوعي العام. فالفساد يحتمل أن يُرتكب سرّاً، لكنه يخاف أن يظل اسمه

فساداً؛ لأنه ما دام اسمه محفوظاً بقيت إمكانية التوبة والرجوع. أما إذا تغير

اسمه، صار الرجوع أصعب؛ لأن الناس لا يتوبون عادةً من شيء يظنونه

فضيلة.

إن الفساد في الأرض إذن ليس فقط أن يفعل الناس الشر، بل أن يفقدوا القدرة على رؤيته شرًا.

وهذا هو أخطر الخراب: خراب المعيار.

حين يفسد المعيار، لا يعود العلاج مجرد موعظة، بل يحتاج إلى إعادة بناء للوعي، وإحياء للفطرة، وربط للناس بالوحي، وكشف للتاريخ، وتربية طويلة على أن الحق لا يتغير بتغير الأهواء، وأن الكثرة لا تجعل الباطل حقًا، وأن الزينة لا تجعل القبيح جميلًا، وأن المصلحة لا تبرر الظلم، وأن العمران الظاهر لا يغفر خراب الإنسان.

ومن هنا يصبح مفهوم **الخراب العام** واضحًا.

الخراب العام ليس أن تسقط الأبنية فقط، بل أن يسقط الإنسان في داخله.

أن تبقى الشوارع مضاءةً والقلوب مظلمة.

أن تبقى المؤسسات قائمةً والأمانة غائبة.

أن تبقى المدارس مفتوحةً والتربية مفقودة.

أن تبقى المحاكم عاملةً والعدل منكسر.

أن تبقى الأسواق نشطةً والبركة منزوعة.

أن تبقى الشاشات لامعةً والحياء مطفأ.

أن تبقى اللغة فصيحةً والحق مزورًا.

هذا هو الخراب الأخطر: خراب لا يبدو خرابًا لمن فقدوا البصيرة، لأنه

يلبس ثوب الحياة.

ولهذا كان القرآن شديدًا في الحديث عن الفساد؛ لأنه لا ينظر إلى السطح

فقط.

قد يرى الناس مدينةً مزدهرة، ويرى القرآن أرضًا يفسد فيها الإنسان.
قد يرى الناس قومًا أقوياء، ويرى القرآن بطشًا بغير حق.
قد يرى الناس سوقًا رابحة، ويرى القرآن بخسًا وفسادًا في الميزان.
قد يرى الناس لذةً وانتشارًا، ويرى القرآن فطرةً تُقلب.
قد يرى الناس سلطانًا عظيمًا، ويرى القرآن فرعون يقول لقومه ما أريكم
إلا ما أرى.
فالقرآن يعلمنا أن لا نغتر بالصورة الظاهرة إذا كان الميزان الداخلي مختلفًا.
وهذا الفهم مهمٌ جدًا في زمنٍ صار فيه كثيرٌ من الفساد يدخل من باب
الصورة والإنجاز والنجاح والمظهر.
قد يُقال لك: انظر إلى التقدم، إلى المال، إلى القوة، إلى الرفاه، إلى الانتشار،
إلى التصفيق.
لكن القرآن يسأل سؤالًا آخر: أين العدل؟ أين الطهارة؟ أين الأمانة؟ أين
العبودية لله؟ أين حفظ الإنسان من أن يتحول إلى عبدٍ لشهوته أو سوقه أو
سلطانه؟ أين المصلحون؟ أين أولو البقية؟
لأن التقدم الذي لا يجيب عن هذه الأسئلة قد يكون تقدمًا في أدوات الفساد لا
في صلاح الحياة.

إن الفساد في الأرض ليس نقيض التخلّف المادي فقط، بل نقيض الصلاح
الإلهي للوجود.
قد تكون الأمة متخلفةً في أدواتها وتحتاج إلى إصلاح، وقد تكون متقدمةً في
أدواتها لكنها فاسدةٌ في مقصدها. والقرآن لا يبارك التخلّف، لكنه لا ينخدع
بالتقدم إذا صار بلا هدى. فالعمران المطلوب ليس أن يملك الإنسان الوسائل

فقط، بل أن يهتدي في الغايات. ولا قيمة لكثرة الوسائل إذا كانت تسير
بالإنسان بعيداً عن الله والعدل والرحمة والآخره.

وهنا نصل إلى قاعدة مركزية:

كل فسادٍ في الأرض هو في جوهره انفصالٌ بين النعمة ووظيفتها.
القوة نعمة، فإذا انفصلت عن العدل صارت طغياناً.
المال نعمة، فإذا انفصل عن الأمانة صار افتراساً.
الجمال نعمة، فإذا انفصل عن الطهارة صار فتنهً مفسدة.
العقل نعمة، فإذا انفصل عن الوحي صار مكرراً أو غروراً.
الحرية نعمة، فإذا انفصلت عن العبودية لله صارت عبوديةً للهوى.
العمران نعمة، فإذا انفصل عن الصلاح صار قشرةً براقهً فوق خرابٍ
داخلي.

والسلطان نعمة، فإذا انفصل عن الخوف من الله صار استبداداً.

بهذا الفهم لا يكون الفساد مجرد ارتكابٍ للمحرمات، بل سوء استعمالٍ
للوجود كله.

إنه تحويل النعم من طريق الشكر إلى طريق البطر.

وتحويل الوسائل من خدمة الحق إلى خدمة الهوى.

وتحويل الأرض من ميدان أمانة إلى ميدان استهلاك وعدوان.

ومن هنا يكون النهي عن الفساد إعادةً للأشياء إلى وظائفها.

يعيد القوة إلى العدل.

والمال إلى الأمانة.

والعلم إلى الهداية.

والجمال إلى الطهارة.

والحرية إلى معنى العبودية لله.

والعمران إلى خدمة الإنسان لا سحقه.

واللغة إلى الصدق لا التزييف.

والتدين إلى الرحمة والحق لا الشكل الفارغ.

فالمصلح لا يكره النعم، بل يكره انقلاب النعم إلى أدوات فساد.

ولا يعادي الحياة، بل يعادي سوء استعمال الحياة ضد معناها.

وهذا يحرر خطاب الإصلاح من صورة ضيقة تجعله مجرد إنكار سلبي.

الإصلاح ليس أن تقول للناس: اتركوا، اتركوا، اتركوا، ثم لا تفتح لهم أفقاً.

الإصلاح أن تقول لهم: ارجعوا بالأشياء إلى مواضعها.

اجعلوا المال رزقاً لا رباً.

واجعلوا القوة أمانة لا سطوة.

واجعلوا الجمال باباً للشكر لا للغواية.

واجعلوا العلم تواضعاً لا استعلاء.

واجعلوا الحرية تحرراً من عبودية الخلق والهوى، لا سقوطاً في عبودية

جديدة.

واجعلوا الأرض ميدان صلاح لا حقل فساد.

ولذلك فإن أولي البقية هم أكثر الناس فهماً لكرامة الحياة؛ لأنهم لا يتركونها

تنحط.

هم لا يريدون للعالم أن يضيق، بل أن يطهر.

ولا يريدون للإنسان أن يحرم من النعم، بل أن ينجو من فتنها.

ولا يريدون للمجتمع أن يتوقف، بل أن يسير في الاتجاه الصحيح.

فالإصلاح القرآني لا يعادي الحركة، بل يعادي الانحراف.

ولا يعادي العمران، بل يعادي فساد العمران.

ولا يعادي القوة، بل يعادي تأليه القوة.

ولا يعادي المال، بل يعادي عبادة المال.

ولا يعادي الجمال، بل يعادي انفصال الجمال عن الحق.

وفي المقابل، فإن المفسدين غالبًا يصورون النهي عن الفساد كأنه عداً

للحياة، لأنهم يريدون احتكار تعريف الحياة.

يريدون أن يقولوا للناس: الحياة هي ما نشتهي، وما نستهلك، وما نعرض،

وما نملك، وما نستطيع أن نفعله بلا قيد.

أما القرآن فيرد الحياة إلى معنى أعلى: الحياة أن تعرف ربك، وأن تقوم

بأمانتك، وأن تستعمل النعمة في موضعها، وأن تسير في الأرض مصلحاً لا

مفسداً، وأن تجعل دنياك طريقاً إلى الآخرة لا حجاباً عنها.

ومن هنا نفهم لماذا يكون الفساد في الأرض نقيضاً للهدى.

فالهدى ليس فكرة في الذهن فقط، بل نظام توجيه للحياة كلها.

والفساد ليس خطأ في السلوك فقط، بل انحراف في وجهة الحياة كلها.

فإذا اهتدى الإنسان، صلحت علاقته بالله، وبنفسه، وبالناس، وبالأرض،

وبالمال، وبالقوة، وبالجمال، وبالزمن، وبالمصير.

وإذا فسد، اختلت هذه العلاقات، ولو بقيت بعض الصور جميلة في الظاهر.

إن أخطر ما في الفساد أنه قابل للتوسع.

يبدأ في القلب، ثم ينتقل إلى الفعل، ثم إلى العادة، ثم إلى الجماعة، ثم إلى

النظام، ثم إلى الثقافة، ثم إلى الأجيال.
وكلما تأخر النهي عنه، ازداد عمقاً، واحتاج إصلاحه إلى كلفة أكبر.
ولهذا كان أولو البقية ضرورةً مبكرةً لا متأخرة.
إنهم يقفون عند البدايات، لأنهم يعرفون أن النهاية تبدأ منها.
يقفون عند الكلمة قبل أن تصير منهجاً.
وعند العادة قبل أن تصير ثقافة.
وعند الظلم قبل أن يصير نظاماً.
وعند الترف قبل أن يصير هوية.
وعند الخطأ قبل أن يصير مبدأً يدافع عنه أصحابه.
والأمة التي تستجيب لنصح أولي البقية في البدايات توفر على نفسها عذابات النهايات.
أما الأمة التي تسخر من الإنذار الأول، ثم تقاوم التصحيح، ثم تحارب المصلحين، فإنها لا تترك لنفسها إلا أن تتعلم من الصدمة.
والصدمة في سنن الله قد تكون قاسية؛ لأن من رفض الدواء في أول المرض قد لا ينفعه إلا ألم الجراحة.
ومع ذلك، يبقى باب الإصلاح مفتوحاً ما بقي في الأمة من يسمع ومن ينهى.
فالفساد ليس قدرًا محتوماً إذا وجدت التوبة، والرجوع، والإصلاح، وصدق النية، وإحياء المعايير.
والقرآن لا يذكر الفساد ليغلق الباب، بل ليوقظ الوعي.

ولا يذكر مصارع الأمم ليزرع اليأس، بل ليمنع التكرار.
ولا يسأل عن أولي البقية ليبكي على غيابهم فقط، بل ليصنعهم في كل جيل.

ولذلك ينبغي أن يخرج القارئ من هذا الفصل وهو يدرك أن الفساد في الأرض ليس شيئاً بعيداً عنه، ولا عنواناً سياسياً أو اجتماعياً مجرداً، بل سؤالٌ يدخل إلى كل موضعٍ من حياته:

هل أستعمل نعم الله في مواضعها أم أحولها إلى أدوات فساد؟
هل أسمى الأشياء بأسمائها أم أشارك في تزوير اللغة؟
هل أمنع الخطأ من أن يصبح عادةً في بيتي وعملي وكلمتي؟
هل أقاوم فساد المجال الذي أستطيع التأثير فيه؟
هل أرى العواقب في البدايات، أم أؤجل الإنكار حتى يصير الفساد أقوى من قدرتي على دفعه؟

إن الفساد في الأرض يبدأ حين ينسى الإنسان أنه مؤتمن.
والإصلاح يبدأ حين يستعيد هذه الأمانة.
وبين النسيان والاستعادة يقف أولو البقية: قومٌ بقي فيهم من نور الوحي ما يجعلهم يميزون بين الذنب والخراب، وبين الخطأ العابر والفساد المنظم، وبين الضعف الإنساني والتطبيع مع الانحراف، وبين النعمة حين تُشكر والنعمة حين تُتبع حتى تصير طريقاً إلى الهلاك.

فإذا كان الذنب الفردي جرحاً في النفس، فإن الفساد في الأرض وباءٌ في الجسد العام.

وإذا كان علاج الذنب توبةً صادقة، فإن علاج الفساد إصلاحٌ عام، ونهيٌّ

شجاع، وإحياء للمعايير، وقطع لشبكات التبرير، ورد للنعم إلى وظائفها،
وتكوين لجيل لا يخجل من الحق حين يكثر الباطل.

وهذا هو موضع الآية:

إنها لا تبحث عن أناس يكرهون الخطأ فقط، بل عن أناس يفهمون كيف
يتحول الخطأ إلى فساد في الأرض، ثم ينهون عنه قبل أن يصبح مصيرًا.
فأولو البقية لا ينتظرون حتى يكتمل الخراب ليرثوه بالبكاء، بل يقفون في
طريقه وهو يتكوّن، لأنهم يعلمون أن الأمة التي تفقد القدرة على منع
البدايات لن تملك غالبًا القدرة على احتمال النهايات.

الفصل السادس

التَّرفُ بوصفه مُخَدِّرُ الأُمَمِ

لا تأتي جملة ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بعد آية ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ مصادفةً في النظم، ولا بوصفها إضافةً تفسيريةً جانبيةً، بل تأتي كاشفةً عن الجذر النفسي والاجتماعي الذي يجعل الفساد قابلاً للتمدد، وعن القوة الخفية التي تُضعف مقاومة الحق في المجتمعات، وعن ذلك المخدِّر الناعم الذي قد لا يبدأ حرباً صريحةً على الوحي، لكنه يصنع في النفس رخاوةً تمنعها من احتمال كلفة الاستجابة له.

فالترف في القرآن ليس مجرد امتلاك المال، ولا مجرد السعة في الرزق، ولا مجرد التمتع بما أباح الله من الطيبات؛ فإن النعمة إذا دخلت في الشكر، والمال إذا دخل في الأمانة، والسعة إذا دخلت في العبودية لله، كانت من فضل الله الذي يُحمد عليه العبد، وتظهر بركته في نفسه وأهله ومجتمعه. ولكن الترف الذي يذمه القرآن هو شيءٌ آخر: هو أن تتحول النعمة إلى غفلة، والسعة إلى بطر، والراحة إلى رخاوة، والمال إلى سلطانٍ على الضمير، واللذة إلى معيارٍ للحكم، والحياة المرفهة إلى قيدٍ خفيٍّ يمنع صاحبها من سماع الحق أو الانقياد له.

ولهذا قال: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾.

والتعبير دقيقٌ جداً؛ لأن المترفين هنا لا يتبعون حجةً، ولا برهاناً، ولا هدىً، ولا بصيرةً، بل يتبعون ما أُتْرِفُوا فيه؛ أي صار الترف نفسه قائدهم،

وصارت العادة المرفقة التي نشئوا عليها أو استغرقوا فيها هي التي تحدد مواقفهم من الحق والباطل، وتقرر ما يقبلونه وما يرفضونه، لا لأن عقولهم بحثت فوجدت، بل لأن أنماط عيشهم لا تريد أن تُمسّ.

إن الترف حين يستولي على الإنسان لا يفسد معدته فقط، بل يفسد معياره. يجعله يقيس الحق بمقدار ما يهدد راحته.

فإن جاء الوحي يطالبه بتغيير في سلوكه، أو عدل في ماله، أو ضبط لشهوته، أو تواضع في سلطانه، أو رحمة بالضعفاء، شعر أن هذا الحق ثقيل، لا لأنه غير واضح، بل لأنه يطلب منه أن يخرج من أسر المتعة المألوفة.

ومن هنا كانت مقاومة المترفين للرسول عبر التاريخ ليست دائماً مقاومة فكرية خالصة، بل مقاومة نمط حياة يخاف أن ينهار أمام المطالبة الإلهية بالعدل والتقوى.

فالإنسان قد يرفض الحق لا لأنه لم يقتنع به، بل لأنه أدرك كلفه. وقد يعاند الوحي لا لأن الحجة لم تبلغه، بل لأن الوحي يهدد امتيازاً يحبه. وقد يكره المصلح لا لأنه كاذب، بل لأنه يذكره بما يريد نسيانه. وقد يسخر من النهي عن الفساد لا لأنه لا يرى الفساد، بل لأنه مستفيد منه، أو مستريح إليه، أو خائف من زواله.

وهنا يصبح الترف أخطر من مجرد معصية ظاهرة؛ لأنه يصنع حول القلب طبقة ناعمة من التخدير.

المترف لا يشعر دائماً أنه عدو للحق، لكنه يشعر أن الحق مزعج. لا يعلن دائماً أنه يريد الفساد، لكنه يريد أن تبقى الحياة كما تشتت في نفسه.

لا يقول صراحةً إن الظلم حسن، لكنه لا يريد عدلاً يهدد مصالحه.
لا يقول إن الفقراء لا حق لهم، لكنه لا يريد نظاماً أخلاقياً يعيد إليه الشعور
بالمسؤولية تجاههم.
لا يقول إن الشهوات ينبغي أن تقود الحياة، لكنه ينفر من كل خطاب يذكره
بأن الشهوة تُهذّب ولا تُعبد.

فالتترف يحارب الحق من داخل النفس قبل أن يحاربه في العلن.
يحارب بالخمول، وبالتسويق، وبالتبرير، وبالضيق من النصيحة، وبالرغبة
في حياة بلا تكاليف ثقيلة.
ولذلك قد يكون التترف أشد خطراً من الفقر على بعض النفوس؛ لأن الفقر قد
يكسر القلب فيرده إلى الله، أما التترف فقد يملأ اليد ويفرغ القلب، وقد يمنح
الجسد راحته ويسلب الروح يقظتها، وقد يجعل الإنسان محاطاً بالنعم حتى
لا يرى المنعم، ومستغرقاً في اللذة حتى لا يسمع النداء، ومشغولاً بالزائد
حتى ينسى الأصل.

وليس معنى هذا أن الفقر مطلوب لذاته، أو أن الغنى مذموم لذاته؛ فهذه
قراءة مختلة.

إنما المقصود أن النعمة إذا لم تضبطها العبودية تحولت إلى فتنة، وأن السعة
إذا لم تصحبها التقوى صارت طريقاً إلى الغفلة، وأن الراحة إذا لم تُهذّب
بالمسؤولية صارت رخاوة في الضمير.

فالمال في يد الشاكر قوة للخير، وفي يد المترف حجاب عن الحق.
والنعمة في قلب المؤمن تزيده تواضعاً، وفي قلب الغافل تزيده استعلاء.

والسعة مع الشكر تفتح أبواب الإحسان، أما السعة مع البطر فتفتح أبواب الفساد.

ومن هنا كانت مشكلة الترف أنه لا يكفي بإفساد صاحبه، بل يريد أن يصنع مجتمعاً على صورته.

المترف لا يحب أن يكون وحده في غفلته؛ يريد ذوقاً عاماً يبررها، وسوقاً يغذيها، وإعلاماً يجمّلها، ولغةً تسميها نجاحاً، وثقافةً تجعل الاستهلاك معياراً للقيمة، ومجالس تتفاخر بها، وطبقةً اجتماعيةً تتبادل رموزها، حتى يصبح الترف ليس حالةً مالية، بل نظاماً نفسياً واجتماعياً يضغط على الناس جميعاً، حتى الفقراء أنفسهم قد يتحولون إلى عبّادٍ لصورة الترف وإن لم يملكوا حقيقته.

وهذا من أعجب ما يقع في المجتمعات: أن يصير الترف حلمًا عاماً، لا بمعنى طلب الكفاية والكرامة، بل بمعنى جعل الاستهلاك غايةً وميزاناً للنجاح.

عندئذ لا يفسد المترف وحده، بل يفسد خيال المجتمع.

يصير الإنسان لا يسأل: ماذا أكون عند الله؟ ولا ماذا أحمل من حق؟ ولا ماذا أقدم من خير؟ بل يسأل: ماذا أملك؟ وكيف أبدو؟ وبماذا أقاس في أعين الناس؟

وهنا يتحول المجتمع من طلب المعنى إلى طلب الصورة، ومن بناء الإنسان إلى تلميع المظهر، ومن تركية النفس إلى تضخيم الرغبات.

وهذا هو الترف حين يصير مخدراً للأمم: لا يكفي بأن يجعلها تتمتع، بل يجعلها تنسى لماذا تعيش.

ينقل مركز الاهتمام من الغاية إلى الوسيلة، ومن الآخرة إلى العاجلة، ومن الأمانة إلى اللذة، ومن المسؤولية إلى الراحة.

وحين يستغرق المجتمع في هذا المخدر، يصبح صوت الإصلاح ثقيلًا عليه؛ لأنه يوقظه من حلمٍ ناعمٍ لا يريد أن يستيقظ منه. والمخدر لا يكره الطبيب لأنه عدوه، بل لأنه يعيده إلى الألم الحقيقي الذي حاول الهروب منه.

إن الترف من هذه الجهة عدوٌ للوعي؛ لأنه لا يواجهه بالحجة بل بالإغراق. يغرق الإنسان في التفاصيل، في الكماليات، في المقارنات، في المظاهر، في المطاعم والملابس والصور والأجهزة والأسفار والزينة والسباق الاجتماعي، حتى لا يبقى في داخله فراغٌ يستمع فيه إلى السؤال الكبير: من أنا؟ ولماذا خلقت؟ وإلى أين أسير؟ وماذا صنعت بما آتاني الله؟ إنه لا يمنع الإنسان من التفكير بالقوة، بل يملأ عليه وقته وشعوره حتى لا يفكر.

ولهذا كان المترفون في قصص القرآن غالبًا في صف مقاومة الدعوات؛ لأن الدعوة تأتي لتعيد ترتيب الأولويات، وهم يريدون إبقاء الأولويات كما تخدم امتيازاتهم.

الدعوة تقول: اعبدوا الله.

والترف يقول: اعبدوا ما اعتدتم عليه.

الدعوة تقول: اتقوا الله في الضعفاء.

والترف يقول: لا تعكروا صفو الامتياز.

الدعوة تقول: لا تفسدوا في الأرض.

والترف يقول: هذه هي الحياة، فلا تضيقوها علينا.

الدعوة تقول: الآخرة حق.

والترف يقول بسلوكه قبل قوله: العاجلة تكفينا.

ولذلك فإن الترف لا يحتاج دائماً إلى إنكار الآخرة بلسانه؛ يكفي أن يعيش الإنسان كأنها ليست قادمة.

وهذا من أخفى ألوان التكذيب العملي.

قد يقول بلسانه: أؤمن بالآخرة، لكنه ينظم حياته كلها حول الدنيا، ويغضب إذا ذُكر، ويؤجل التوبة، ويقيس الناس بما يملكون، ويستهين بالمظلومين، ويتعامل مع النعمة كأنها حق ذاتي لا ابتلاء، ويكره كل خطاب يعيد المال إلى معنى الحساب.

فإذا صار الإيمان بالآخرة معلومةً لا تعيد ترتيب السلوك، فقد بدأ الترف يمارس سلطانه على القلب.

والترف كذلك يضعف معنى النهي عن الفساد؛ لأن الناهي يحتاج إلى نفس حرة، والمترف أسير لما اعتاده.

الذي يخاف على رفاهيته لا يقول الحق بسهولة.

والذي يخاف أن يخسر مكانته بين أهل الترف يداهنهم.

والذي ربط قيمته بما يملك يصعب عليه أن يقف مع الحق إذا هدد الحق مصالحه.

والذي يعبد الراحة لا يصبر على مشقة الإصلاح.

فالإصلاح يحتاج إلى قدرٍ من الزهد، لا بمعنى ترك الحلال كله، بل بمعنى

ألا يملك الحلال قلبك، وألا تجعلك النعمة عبداً لها، وألا تصير الراحة مانعةً لك من واجب الحق.

ولهذا كان أولو البقية في حقيقتهم أحراراً من الداخل.
قد يملكون مالاً أو لا يملكون، قد يعيشون في سعةٍ أو ضيق، لكنهم لا يتبعون ما أترفوا فيه.
النعمة في أيديهم لا في قلوبهم.
والراحة لا تُسكت ضميرهم.
والقبول الاجتماعي لا يشتري مواقفهم.
والخوف من فقدان الامتياز لا يمنعهم من قول الحق.
إنهم يدركون أن من جعل دنياه أكبر من حقه باع حقه عند أول اختبارٍ جاد.
والترف إذا دخل على النخبة كان أشد خطراً مما إذا بقي في الأفراد؛ لأن النخبة المترفة تصنع خطاباً يحمي ترفها.
قد تكون نخبة مال، أو سياسة، أو ثقافة، أو إعلام، أو حتى نخبة دينية إذا أصابها الترف في صورة الراحة والوجاهة والحرص على المكانة.
فإذا ترفّت النخبة، ضعفت قدرتها على الإصلاح، لأنها صارت جزءاً من النظام الذي يحتاج إلى النقد.
كيف ينهى من يستفيد؟

وكيف يفضح من يخاف على صورته؟
وكيف يوقظ من اختار أن ينام في فراش الامتياز؟

هنا يتضاعف خطر غياب أولي البقية؛ لأن المجتمع حين يقوده مترفون ويصمت فيه المصلحون، يصبح الفساد ذا قيادة، والحق بلا حراسة.

وحين يملك المترفون المال والمنابر والذوق العام وشبكات التأثير، ثم لا توجد بقية تكشف زيفهم، فإنهم يعيدون تشكيل خيال الناس على مقاسهم. يصبح ما يحبونه هو الجميل، وما يملكونه هو النجاح، وما يستهلكونه هو الرقي، وما يرفضونه هو التخلف، وما يضيقون به من الحق يوصف بأنه تشدد أو إزعاج.

ومن هنا نفهم لماذا كانت الآية شديدة في ربط الظلم بالترف: **(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ).**

فالترف حين يقترن بالظلم لا يبقى متعة شخصية، بل يصير بنيةً عدوانية. المترف الظالم لا يكتفي بالنعمة، بل يريد حمايتها ولو على حساب الحق. لا يكتفي بأن يأخذ نصيبه، بل يريد أن يبقى الضعفاء في مواقعهم حتى يبقى امتيازهم قائماً.

لا يكتفي باللذة، بل يريد إسكات من يكشف ثمنها الأخلاقي والاجتماعي. ولذلك كان الظلم تابعاً للترف أو مصاحباً له في كثير من أحوال الأمم؛ لأن الرفاه غير المذهب يحتاج إلى ظلم يحفظه، أو إلى غفلة تمنع مساءلته.

وقد يكون الظلم هنا ظلماً للنفس، وظلماً للناس، وظلماً للحق، وظلماً للنعمة. فالمترف يظلم نفسه حين يجعلها عبدة لما أُعطيت.

ويظلم الناس حين يبني راحته على تعبهم أو حاجتهم أو إسكاتهم.

ويظلم الحق حين يرده لأنه لا يوافق نمط حياته.

ويظلم النعمة حين يستعملها في غير وجهها.

وهكذا لا يعود الترف حالةً من النعيم، بل طريقاً إلى الجريمة: **(وَكَانُوا**

مُجْرِمِينَ).

والتعبير بـ **(مُجْرِمِينَ)** يكشف أن المسألة لم تعد مجرد غفلة. لقد تحول الاتباع لما أترفوا فيه إلى إجرام؛ أي إلى قطع لما ينبغي وصله، وإفساد لما ينبغي حفظه، وعدوان على نظام الحق. فالترف إذا لم يُقاوم بالشكر والزهد والمسؤولية قد ينتهي بصاحبه إلى الإجرام، لأنه يدرّبه على تقديم رغبته على كل شيء، فإذا تعارضت رغبته مع الحق ضحّى بالحق، وإذا تعارضت مع الضعفاء سحقهم، وإذا تعارضت مع المصلحين قاومهم.

إن من أخطر ما يصنعه الترف أنه يغيّر علاقة الإنسان بالألم. فالإنسان المترف يريد حياة بلا ألم، بلا كلفة، بلا مقاومة، بلا صبر، بلا انتظار.

لكن الإيمان يربي الإنسان على احتمال الألم في سبيل المعنى: ألم المجاهدة، وألم ضبط النفس، وألم قول الحق، وألم الصبر على الطاعة، وألم مقاومة الشهوة، وألم مخالفة التيار. فإذا صار الإنسان لا يحتمل أي ألم معنوي، صار عاجزاً عن التدين الجاد؛ لأن الدين ليس مجرد طمأنينة ناعمة، بل تكليف، ومجاهدة، وموقف، وصبر، وحمل للأمانة.

ولهذا كان قيام الحق في الأمم يحتاج إلى رجالٍ ونساءٍ لم تقتل الراحة فيهم القدرة على الاحتمال.

يحتاج إلى من يستطيع أن يقول لا لنفسه قبل أن يقولها للفساد.

وإلى من يستطيع أن يترك بعض ما يحب إذا صار حجاباً.

وإلى من يستطيع أن يخسر شيئاً من صورته أو مصلحته أو راحته في

سبيل أن لا يخسر ضميره.

أما الإنسان الذي ربّاه الترف على أن كل ما يشتهيّه ينبغي أن يناله، وأن كل ما يزعجه ينبغي أن يُزال، فإنه يكون هشًّا أمام الحق؛ لأن الحق سيزعجه حتمًا حين يصطدم بهواه.

ومن هنا كان علاج الترف ليس الفقر، بل الشكر والزهد والمسؤولية. الشكر يردّ النعمة إلى المنعم.

والزهد يحرر القلب من عبودية ما يملك.

والمسؤولية تجعل السعة بابًا للإحسان لا للبطر.

فليس المطلوب أن يكره الإنسان نعم الله، بل أن يخاف من فتنتها، وأن يستعملها في طاعة الله، وأن لا يجعلها حجابًا بينه وبين الحق، وأن يعرف أنها اختبار لا شهادة تفوق.

والزهد هنا ليس خراب الدنيا، ولا إهمال العمل، ولا ترك الجمال المشروع، بل هو حرية القلب.

أن تملك الشيء ولا يملكك.

أن تنتفع بالنعمة ولا تتبعها.

أن تفرح بفضل الله ولا تبطر.

أن توسع على نفسك وأهلك بالحلال ولا تنسى حق الفقير والمظلوم.

أن لا تجعل رفاهك معيارًا للحقيقة.

أن تكون قادرًا على ترك ما لا يرضي الله ولو تعودته.

أن لا تحتاج إلى فقد النعمة حتى تتذكر المنعم.

إذا تحقق هذا المعنى، صار الغنى قوة لا فتنة، وصارت السعة شكرًا لا ترفًا، وصار الجمال بابًا إلى الحمد لا الغواية، وصارت الراحة عونًا على الطاعة لا مخدرًا عن المسؤولية.

أما إذا غاب هذا المعنى، فإن النعمة نفسها قد تتحول إلى قيد ذهبي: يلمع من الخارج، لكنه يربط القلب من الداخل.

وهذا القيد الذهبي هو ما يجعل المترفين غالبًا أعداءً للمصلحين؛ لأن المصلح يأتي ليكسر القيد، وهم يرونه جزءًا من زينتهم.

يقول لهم: هذه النعمة ستسألون عنها.

فيقولون: دعنا نستمتع.

يقول: هذا المال أمانة.

فيقولون: هذا حقنا.

يقول: هذه القوة ابتلاء.

فيقولون: هذه مكانتنا.

يقول: هذا الترف يقودكم إلى الغفلة.

فيقولون: هذا نجاحنا.

يقول: لا تتبعوا ما أترفتم فيه.

فيقولون: بل هذا هو معنى الحياة.

ومن هنا كانت معركة الإصلاح مع الترف معركةً على تعريف الحياة نفسها.

هل الحياة أن تستغرق فيما أُعطيت حتى تنسى من أعطاك؟

أم الحياة أن تجعل ما أُعطيت طريقًا إلى معرفته وشكره وطاعته؟

هل النعمة أن توسع شهواتك فقط؟

أم أن النعمة أن تزيدك قرباً ومسؤولية وإحساناً؟

هل الراحة غاية؟

أم وسيلة تعينك على ما خلقت له؟

هل المال يقيس قدرك؟

أم يكشف امتحانك؟

إن القرآن حين يذم اتباع الترف لا يريد أن يحرم الإنسان من الحياة، بل يريد أن ينقذه من الحياة حين تتحول إلى حجابٍ عن حقيقتها. فالحياة بلا ذكرٍ لله غفلة، والنعمة بلا شكرٍ فتنة، والمال بلا أمانة وبال، والجمال بلا طهارة غواية، والراحة بلا عبودية رخاوة، والقوة بلا عدل طغيان.

أما حين تدخل هذه كلها في ميزان الوحي، فإنها تتحول إلى مواد صلاحٍ لا مواد فساد.

ولذلك كان أولو البقية هم الذين يكشفون للمجتمع زيف الترف حين يتأله. لا يكتفون بالقول إن الترف مضر، بل يبينون كيف يصنع إنساناً هشاً، وكيف يضعف النهي، وكيف يشتري الضمائر، وكيف يخدر الفطرة، وكيف يجعل الظالمين يتبعون ما ألفوه بدل أن يتبعوا الحق، وكيف يحول النعمة إلى أداة إجرام حين تنفصل عن التقوى.

وما أكثر ما تحتاج الأمة إلى هذا الفقه اليوم؛ لأن الترف لم يعد حكراً على طبقةٍ محدودة، بل صار نموذجاً عالمياً تُصدره الصور والأسواق والرغبات، حتى صار الفقير يرى نفسه فاشلاً لأنه لا يعيش نمط المترف، وصار الغني

يضاعف استهلاكه ليحافظ على صورته، وصار الإنسان العادي محاصرًا بمقارناتٍ لا تنتهي، تجعله ناقمًا على نعمه، مستصغرًا ما عنده، متطلعًا إلى ما ليس له، ناسيًا أن القيمة ليست فيما يلمع حوله، بل فيما يثبت داخله.

هذه هي خطورة الترف المعاصر: أنه لم يعد مجرد واقع اقتصادي، بل صار صناعةً للخيال.

يعيد تعريف السعادة، والنجاح، والجمال، والاعتبار الاجتماعي. يصنع إنسانًا يعيش في سباقٍ دائمٍ على الصورة، حتى ينسى حقيقة نفسه. وإذا دخل هذا الخيال إلى الأمة، صار الإصلاح أصعب؛ لأنك لا تواجه شهوةً عابرة، بل تواجه نظامًا كاملاً يصنع الرغبة ثم يبيع إشباعها ثم يجعل الإنسان يستحي من بساطته وقناعته.

وهنا يكون دور أولي البقية أن يعيدوا للناس فقه القناعة لا بوصفها عجزًا، بل بوصفها حرية.

وفقه الشكر لا بوصفه كلمةً تقال، بل بوصفه نظامًا في استعمال النعمة. وفقه الزهد لا بوصفه فقرًا، بل بوصفه سيادة القلب على الأشياء. وفقه الآخرة لا بوصفها فكرةً مؤجلة، بل بوصفها الحقيقة التي تمنع الدنيا من أن تصبح معبودًا.

فإذا عاد هذا الفقه، فقد الترف بعض سلطانه، لأن سلطانه يقوم على أن يظن الإنسان أن ما يملكه هو ما يكونه.

إن الأمة التي تريد النجاة لا بد أن تتحرر من قيادة الترف. قد تملك، وقد تبني، وقد تعمر، وقد تتقدم، لكن عليها ألا تتبع ما أترفت فيه. الفرق بين أن تستعمل النعمة وأن تتبعها هو الفرق بين الشكر والغفلة.

أن تستعمل النعمة يعني أن تجعلها في يدك وتحت ميزان الحق. أما أن تتبناها فيعني أن تجعلها أمامك تقودك، تحدد أخلاقك، ومواقفك، وتحالفاتك، وسكوتك، وكلامك، ورضاك، وغضبك.

والذين اتبعوا ما أُترفوا فيه لم يعودوا أحرارًا.

قد يبدون أحرارًا لأنهم يملكون كثيرًا، لكنهم عبيدٌ لما يملكون.

وقد يبدون أقوياء لأنهم محاطون بالامتياز، لكنهم ضعفاء أمام فقدانه.

وقد يبدون سعداء لأن مظاهر النعمة عليهم، لكنهم خائفون من كل حقٍ يطالبهم بإعادة الحساب.

أما المؤمن فحرية في أنه لا يتبع إلا ما أنزل الله، ولا يجعل النعمة قائدًا، ولا يسمح للترف أن يشتري قلبه.

ومن هنا نصل إلى خلاصة هذا الفصل:

إن الترف إذا لم يُهذَّب صار مخدرًا للأمم، لأنه يقتل فيها الحسَّ بالعاقبة، ويضعف شجاعة النهي، ويجعل الظالمين يتبعون ما اعتادوا عليه من لذةٍ وامتياز، ويحول النعمة من باب شكرٍ إلى طريق إجرام. ولا تقاوم الأمة هذا الترف بمجرد ذم المال، بل بتربية القلب على الشكر، وتحرير النفس من عبودية الصورة، وردّ النعمة إلى الأمانة، وربط الدنيا بالآخرة، وصناعة أولي بقية لا يخذّرهم ما أُترفوا فيه، ولا يبيعون الحق براحةٍ مؤقتة.

فإذا كان الفساد في الأرض هو المرض، فإن الترف المفسد هو أحد أخطر المخدرات التي تمنع الأمة من الشعور به.

وإذا كان أولو البقية هم جهاز المناعة، فإن أول معاركهم أن يوقظوا الأمة

من هذا التخدير الناعم، وأن يقولوا لها: ليست كل نعمة دليل رضى، وليست كل سعة علامة نجاة، وليست كل راحة خيرًا، وليست كل حياة لامعة حياة صالحة.

النعمة الحقيقية هي التي تقودك إلى الله، لا التي تحجبك عنه. والسعة المباركة هي التي تزيدك شكرًا وعدلاً ورحمة، لا التي تجعلك تتبع ما أترفت فيه حتى تصبح من الغافلين.

وهكذا تفهم الآية في عمقها:
حين غاب أولو البقية، اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه.
أي حين غابت المناعة، قاد المخدر الجسد.
وحين غاب الناهون، صار الترف إمام الظالمين.
وحين سكنت البقية أو قلّت، تمدد الفساد تحت غطاء النعمة.
وهنا لا يبقى أمام الأمة إلا أن تستيقظ قبل أن يتحول الترف من لذة عابرة إلى طريق كامل نحو الهلاك.

الفصل السابع

القليل الذي ينجو

تبلغ الآية ذروة شديدة الإيحاء حين تقول: **(إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)**؛ فالقرآن هنا لا يتركنا أمام صورة واسعة من المصلحين الذين غلبوا الفساد في مجتمعاتهم، ولا أمام كثرة نافرة من الباطل، بل يضعنا أمام حقيقة مرة من حقائق التاريخ الإنساني: أن الذين يحملون البقية في أزمنة الانهيار غالبًا قليل، وأن النجاة حين يشتد الفساد لا تكون مع التيار العريض، ولا مع الأكثرية المستريحة، ولا مع الجموع التي اتبعت ما أترفت فيه، بل مع ذلك القليل الذي بقي حيّ الضمير، يقظ البصيرة، ثابتًا أمام ضغط العادة والمصلحة والترف والخوف.

والقليل هنا ليس وصفًا عدديًا باردًا، بل وصفٌ لمعركة داخلية عسيرة؛ لأن الإنسان لا يصير من هذا القليل لمجرد أنه وُلد في جانبٍ ما، أو انتسب إلى شعارٍ ما، أو أعلن اعتراضًا عابرًا على الفساد، بل لأنه دفع كلفة التمايز عن الموجة العامة، واحتمل وحشة الطريق حين صار أكثر الناس يتبعون ما ألفوه، وحفظ في داخله ميزان الحق حين كانت الموازين من حوله تميل، ولم يسمح للكثرة أن تخدعه، ولا للغلبة أن ترهبه، ولا للترف أن يخدره، ولا للسخرية أن تكسر عزيمته.

إن القرآن حين يقول: **(إِلَّا قَلِيلًا)** لا يريد أن يمجد القلة لذاتها، فالقلة ليست دليل حقٍ دائمًا كما أن الكثرة ليست دليل باطلٍ دائمًا، ولكنه يريد أن ينبه إلى

أن الحق في لحظات الانحدار قد يضيق حاملوه، وأن الفساد إذا صار مناخاً عاماً جعل الاستقامة نفسها تبدو غريبة، وأن الإنسان المؤمن لا يجوز أن يجعل عدد السائرين في طريق ما برهاناً على سلامته؛ فقد تتفق الكثرة على الغفلة، وقد يتواطأ المزاج العام على تزيين الباطل، وقد يصبح صوت الحق قليلاً لا لأنه ضعيف في ذاته، بل لأن النفوس ضعفت عن احتماله.

وهذه من أعظم تربية القرآن للوعي: أن يحرر الإنسان من عبادة الكثرة. فالكثرة قد تمنح صاحبها طمأنينة اجتماعية، لكنها لا تمنحه براءة عند الله. قد يقول الإنسان: الناس كلهم يفعلون، الناس كلهم يرضون، الناس كلهم يسكتون، الناس كلهم ساروا في هذا الطريق؛ فيظن أن عموم الفعل يُسقط عنه مسؤولية النظر والاختيار، مع أن القرآن يعلمنا أن الكثرة لا تعصم من الضلال إذا فقدت الهداية، وأن الاتباع العام لا يحول الفساد إلى صلاح، وأن النجاة لا تُنال بالذوبان في الناس، بل بالثبات على الحق ولو قلّ السالكون.

والقليل الذي ينجو ليس قليلاً لأنه يملك رغبة في مخالفة الناس، بل لأنه يملك قدرة على عدم الذوبان فيهم.

ليس غريباً لأنه يحب الغرابة، بل لأنه رفض أن يشتري الألفة الاجتماعية بثمن ضميره.

ليس منعزلاً عن المجتمع كارهاً له، بل حاضرٌ فيه حضور الشاهد والناصح والمصلح، لكنه لا يسمح للمجتمع أن يعيد تشكيل قلبه على مقياس فساد.

إنه قريبٌ من الناس بالرحمة، بعيدٌ عن باطلهم بالبصيرة.

يخاطبهم، وينصحهم، ويحمل همهم، لكنه لا يساومهم على أصل الحق.

وهذا القليل في الحقيقة هو الذي يحفظ للإنسانية معنى الرجوع.
فإذا فسدت الكثرة، وبقي قليلٌ يقولون الحق، لم تمت الحجة.
وإذا غلب الباطل، وبقي قليلٌ يرفضون تسميته حقًا، لم يكتمل التزوير.
وإذا انتشر الترف، وبقي قليلٌ يذكرون بأن النعمة امتحان، لم يستطع
المخدر أن يستولي على الوعي كله.
وإذا صار الفساد مألوفًا، وبقي قليلٌ يستنكرونه، بقي في المجتمع ألمٌ يدل
على أن الجسد لم يمت تمامًا.
فالقليل الناجي ليس مجرد ناجٍ بنفسه، بل هو شاهدٌ على أن الطريق الآخر
لا يزال ممكنًا.

ومن هنا كان القليل موضع نجاةٍ لا لأنه قليل، بل لأنه حمل صفات النجاة:
الإيمان، والنهي، والصبر، والبصيرة، ومخالفة الترف، ورفض الانغماس
في الفساد.

فكم من قلةٍ كانت على باطل، وكم من كثرةٍ كانت على خير؛ إنما الميزان
في القرآن ليس العدد، بل الحق الذي يحمله العدد.
لكن حين يتحدث السياق عن الأمم التي اتبعت ما أترفت فيه، يصبح القليل
علامةً على أن الحق لم يبقَ إلا في نفرٍ قاوموا هذا الاتباع العام.

ولفظ **(مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)** يضيف إلى المعنى بعدًا آخر: فالنجاة ليست مهارةً
بشريةً مجردة، ولا نتيجة ذكاءٍ اجتماعي، ولا ثمرة استقلالٍ نفسي فقط، بل
هي فضلٌ من الله، يقع ضمن سننه وعدله ورحمته.
نعم، هؤلاء نهوا، وثبتوا، وصبروا، ولم يتبعوا ما أترف فيه الظالمون، لكن
نجاتهم في النهاية من الله.

وهذا يمنع صاحب البقية من الغرور؛ لأنه لا يقول: نجوت بقوتي، بل يقول: نجاني الله حين وفقني أن لا أذوب في الفساد، وحين حفظ في قلبي بقية من الحق، وحين لم يجعلني عبدًا لما أترف فيه الناس.

فالنجاة نفسها نعمة تحتاج إلى شكر.

أن لا يعجبك الباطل حين يعجب الناس.

أن لا يفتنك الترف حين يفتن الناس.

أن لا تبيع ضميرك حين يبيعه الناس.

أن لا تبرر الظلم حين يبرره الناس.

أن تبقى قادرًا على رؤية القبيح قبيحًا حين يلّمعه الذوق العام.

هذه كلها ليست بطولة ذاتية صرفة، بل من حفظ الله للعبد.

ومن لم يعرف فضل الله في ثباته كان ثباته مهددًا بالعجب، والعجب بابٌ خفي من أبواب السقوط.

إن القليل الناجي يحتاج إلى صفتين متلازمتين: الثبات والتواضع.

الثبات حتى لا تبتلعه الكثرة.

والتواضع حتى لا يفسده شعوره بالتمايز عنها.

فقد ينجو الإنسان من فساد الترف، ثم يقع في فساد احتقار الناس.

وقد يثبت أمام الباطل، ثم يظن أن ثباته يمنحه حق التعالي على الضعفاء والمخطئين.

وهذا خطر شديد؛ لأن أولي البقية لا يحملون البقية ليعلوا بها على الخلق، بل ليحفظوا بها الخلق من الهلاك.

إنهم ليسوا طبقةً نرجسيةً ترى نفسها أنقى من الناس، بل قومٌ عرفوا أن الله

حفظ فيهم شيئاً من الحق ليكونوا به شهوداً ومصلحين، لا متكبرين ومتعاليين.

ولذلك فالقليل الناجي لا يفرح بسقوط الكثرة، بل يتألم لها.
لا يقول: هلك الناس وهو يريد تزكية نفسه، بل يقول: اللهم اهدِ قومي، اللهم ردّ الناس إلى الحق، اللهم اجعل في الأمة بقيةً تنهى وتصلح.
يحزن إذا رأى الفساد منتشرًا، لا لأنه يخسر معركة شخصية، بل لأن الناس يبتعدون عن أسباب النجاة.
ويغضب للحق، لكن غضبه لا يطفئ رحمته.
ويواجه الباطل، لكن مواجهته لا تنزع منه الدعاء للمخدوعين والمستضعفين والضعفاء.

هنا يظهر الفرق بين القليل القرآني والقليل المتعالي.
القليل القرآني يحمل أمانة.
أما القليل المتعالي فيحمل هويةً مغلقة.
القليل القرآني يشهد على الحق ويريد تكثير الناجين.
أما القليل المتعالي فيستمتع بندرة موقعه.
القليل القرآني يقاوم الفساد رحمةً بالناس.
أما القليل المتعالي فقد يقاومهم ليؤكد تفوقه عليهم.
والقرآن لا يريد هذا النوع من القلة؛ لأنه فسادٌ آخر باسم النجاة.

إن (إِلَّا قَلِيلًا) ينبغي أن تُقرأ إذن بوجدانين معًا: وجدان العزة بالحق، ووجدان الخوف من النفس.
العزة حتى لا نستوحش من طريق الهدى إذا قلّ أهله.

والخوف حتى لا نحول القلة إلى دعوى غرور.
فمن كان مع الحق فليحمد الله أن هداه، وليدعُ الخلق إليه، وليثبت من غير
كبر، وليعلم أن القلوب بين يدي الله، وأن الذي تثبته قادرٌ أن يزيغه لو وكله
إلى نفسه.

والقليل الناجي في تاريخ الأمم هو غالبًا ذلك الذي يسبق قومه في رؤية
العاقبة.

الناس يرون اللحظة، وهو يرى النهاية.
الناس يرون المتعة، وهو يرى الحساب.
الناس يرون الربح العاجل، وهو يرى فساد الميزان.
الناس يرون الغلبة، وهو يرى ظلم القوة حين تنفصل عن العدل.
الناس يرون انتشار الفعل، وهو يرى موت الحياء إذا تُرك.
الناس يرون الترف نجاحًا، وهو يرى فيه مخدرًا إذا خلا من الشكر.
ولهذا يبدو المصلح أحيانًا كأنه يبالغ، لا لأنه يبالغ حقًا، بل لأنه يرى
المآلات قبل أن يراها المستغرقون في البدايات.

وهذه القدرة على رؤية المال من علامات البقية.
فالإنسان العادي قد لا يشعر بالخطر إلا إذا وقع، أما صاحب البقية فيشم
رائحة الهلاك في مقدماته.

لا ينتظر أن ينهار البيت كله ليقول إن الأساس متصدع.
ولا ينتظر أن يغرق المجتمع في الفساد الكامل ليقول إن الطريق خطأ.
إنه ينهى مبكرًا، ولذلك يُتهم بالمبالغة مبكرًا، ثم يكتشف الناس بعد زمن أن
ما حذر منه كان يتكون أمامهم وهم يسخرون من إنذاره.

وما أكثر ما يندم الناس بعد فوات الأوان على أصواتٍ صادقةٍ لم يسمعوها.
كان فيهم من يقول لهم: لا تجعلوا المال سيِّداً.
فقالوا: هذا يضيق علينا.
وكان فيهم من يقول: لا تطبعوا الفساد.
فقالوا: هذا لا يفهم العصر.
وكان فيهم من يقول: لا تتركوا الأسرة تنهار.
فقالوا: هذا متشدد.
وكان فيهم من يقول: لا تسكتوا عن الظلم.
فقالوا: هذا يثير المتاعب.
ثم حين تقع الثمرة المرة يقولون: كيف وصلنا إلى هنا؟
وقد كانوا يصلون إليها خطوةً خطوةً، وصوت البقية يناديهم وهم لا يحبون سماعه.

ومن هنا كان القليل الناجي ذا وظيفة إنذارية.
وجوده في المجتمع يزعج الغفلة.
ليس لأنه يكره الناس، بل لأن الغفلة لا تحب من يقطع نومها.
المترف يريد من يبارك لذته.
والظالم يريد من يبرر قوته.
والمنحرف يريد من يطبع انحرافه.
والغافل يريد من يخفف عنه وخز ضميره.
أما صاحب البقية فيأتي ليقول: انتبهوا، هذا الطريق ليس آمناً.
وقد يكره الناس نبرته في البداية، لكن كراهيتهم لا تغير حقيقة الطريق.

والقليل الناجي لا يقاس أثره بعدده فقط.
قد يكون واحدًا في موضع ما، لكنه يمنع انطفاء المعنى.
قد يكون عالمًا واحدًا يرفض تزوير الدين، فيحفظ للأمة معيارًا.
وقد يكون كاتبًا واحدًا يفضح فساد اللغة، فيمنع الباطل من احتكار البيان.
وقد يكون معلمًا واحدًا يربي جيلًا على الصدق، فيفتح بابًا للمستقبل.
وقد تكون أمٌ في بيتها تحفظ الفطرة في أبنائها وسط طوفانٍ من الفساد،
فتكون من أولي البقية وهي لا تشعر.
وقد يكون شابٌ واحدٌ يرفض الانجراف في صحبته، فيصير حجةً صامتةً
على أن النجاة ممكنة.

إن الله لا يزن الأعمال بضجيجها، بل بصدقها وموضعها وأثرها.
وقد يكون موقفٌ صغيرٌ في أعين الناس كبيرًا في ميزان النجاة؛ لأنه وقع
في لحظةٍ كان الجميع فيها يسكتون.
وقد تكون كلمةٌ واحدةٌ من الحق أثقل من خطبٍ كثيرة، لأنها قيلت حيث كان
الخوف يمنع الكلام.
وقد يكون امتناعٌ عن باطلٍ أكثر إصلاحًا من نشاطٍ ظاهر، لأنه قطع سلسلة
فسادٍ كانت ستستمر.

ولهذا لا ينبغي لأصحاب البقية أن يحتقروا مواقعهم.
فالفساد العام لا يقاومه فردٌ واحدٌ من موضعٍ واحد، بل تقاومه شبكةٌ من
الثباتات الصغيرة والكبيرة.
كل من حفظ موضعه من الفساد فقد ضيق على الفساد مساحةً من الأرض.
كل من قال كلمة حقٍ في مكانها فقد منع الباطل من الطمأنينة.

كل من ربى نفساً أو أهلاً أو طالباً على المعنى فقد وسع دائرة النجاة.
وكل من أبى أن يتبع ما أترف فيه الظالمون فقد شهد بأن الإنسان يستطيع
أن يكون حرّاً من الداخل.

غير أن القليل الناجي يتعرض لفتنةٍ أخرى: فتنة اليأس.
حين يرى كثرة المنجرّفين، وقوة الترف، واتساع الفساد، وضعف
الاستجابة، قد يقول: ما جدوى النهي؟ ما قيمة الكلمة؟ ما أثر الموقف؟ هل
يغير شيء من هذا في واقعٍ واسعٍ متشابك؟
وهنا يحتاج إلى فقهٍ عميق: أن الإصلاح ليس مشروطاً بأن ترى الثمرة
كلها، وأن القيام بالحق ليس صفقةً تنتظر ربحها العاجل، وأن وظيفة الشاهد
لا تسقط إذا أعرض الناس، وأن النهي عن الفساد عبادةٌ قبل أن يكون
استراتيجيةً، وإن كان يحتاج إلى حكمة الاستراتيجية أيضاً.
الأنبياء أنفسهم، وهم صفوة الخلق، لم يستجب لهم كل الناس.
ومنهم من عاش طويلاً يدعو، ولم يؤمن معه إلا قليل.
فليست قلة الاستجابة دليل خطأ الطريق، ولا بطء الثمرة دليل عبث العمل.
المصلح مأمور أن يعمل بما يقدر، وأن يخلص، وأن يحسن الوسيلة، وأن
يصبر، وأن يترك النتائج لله.
أما أن يترك النهي لأن الفساد قوي، فذلك يعني أن يعطي الفساد ما يريد:
الصمت.

إن الفساد لا يطلب من المصلح دائماً أن يوافقه، يكفيه أحياناً أن ييأس.
إذا يئس المصلح سكت.
وإذا سكت، خلا المجال للمفسدين.

وإذا خلا المجال لهم، قالوا للناس: لا أحد يعترض، إذن نحن على حق.
لذلك يكون الصبر جزءًا من معنى القليل الناجي.
يصبر لا لأنه لا يتألم، بل لأنه يعرف أن الألم في طريق الحق أكرم من
الراحة في طريق الذوبان.

والقليل الناجي لا يعيش فقط على مقاومة الفساد، بل يعيش على غذاء داخلي
يحفظه من الجفاف.

إنه يحتاج إلى ذكرٍ يثبت قلبه، وإلى قرآنٍ يجدد بصيرته، وإلى صحبةٍ
صالحةٍ تخفف وحشة الطريق، وإلى علمٍ يمنعه من الاضطراب، وإلى عبادةٍ
تطهر نيته، وإلى توبةٍ دائمةٍ تمنعه من العجب، وإلى نظيرٍ في سنن الله حتى
لا ينهار أمام مشاهد الغلبة المؤقتة للباطل.

فالذي يريد أن ينهى عن الفساد دون أن يغذي قلبه بالحق قد يتعب، أو يقسو،
أو ييأس، أو يتحول الإصلاح عنده إلى عبءٍ نفسيٍّ لا إلى عبوديةٍ لله.

ومن أعظم ما يثبت القليل الناجي أن يعرف أن النجاة ليست فقط نجاةً من
العقوبة، بل نجاةً من التحول الداخلي.

هناك من ينجو جسده لكنه يفقد قلبه.

وهناك من يحافظ على مكانته لكنه يفقد ضميره.

وهناك من لا يصيبه أذى ظاهر لكنه صار نسخةً مما يكرهه.

أما النجاة الحقيقية فهي أن يحفظ الله قلبك من أن يتشكل على صورة الفساد
الذي تعيش بينه.

أن تبقى ترى الحق حقًا والباطل باطلاً.

أن تبقى قادرًا على التوبة.

أن تبقى فيك حساسية تجاه المعصية والظلم والانحراف.
أن لا يصبح القبيح مألوفاً في قلبك ولو كثر في عينيك.

هذه نجاة عظيمة؛ لأن أخطر الهلاك أن يفسد القلب دون أن يشعر صاحبه.
أن يظل الإنسان يتحرك ويعمل ويظهر بين الناس، لكن داخله
ماتت فيه القدرة على الاستنكار.

لم يعد يتألم من الظلم.

لم يعد يستحي من القبيح.

لم يعد يغضب لله.

لم يعد يفرق بين الحكمة والمداينة.

لم يعد يرى الترف مخدراً.

لم يعد يسمع صوت الآخرة.

هذا هو الهلاك الخفي، والقليل الناجي ينجو منه قبل أن ينجو من غيره.

ولذلك فالقليل الناجي في الآية ليس فقط من نجا عند نزول العذاب، بل من
نجا قبل ذلك من أسباب العذاب: نجا من الترف، ومن الاتباع الأعمى، ومن
موت الضمير، ومن السكوت عن الفساد، ومن ذوبان الفطرة، ومن تزوير
اللغة، ومن عبودية الكثرة.

وهذه النجاة الداخلية هي أصل النجاة الخارجية، لأن الله لا ينجي عباده
عبثاً، بل ينجي من بقي فيهم ما يستحق النجاة بمقتضى فضله وعدله
ورحمته.

إن قوله تعالى: **(مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)** يفتح باباً للتأمل في أن النجاة اختيار
إلهي يقع على من أخذ بأسبابها.

فليس كل من عاش بين الهالكين هالكًا، ولا كل من أحاط به الفساد فاسدًا،
ولا كل من كان في زمن الترف تابعًا له.

قد يحيط بك الفساد من كل جانب، ويبقى الله حافظًا قلبك إذا صدقت معه.
وقد تعيش في زمنٍ صعبٍ، لكنك تكون من القليل الذي أنجاه الله لأنه لم
يرضَ أن يبيع بقيته.

وهذا يزرع الأمل؛ لأن المؤمن لا يقول: فسد الزمان فلا سبيل.
بل يقول: ما دام الله ينجّي قليلًا، فليكن همي أن أكون من هذا القليل.

لكن هذا الأمل ليس أملًا كسولًا، بل أملٌ عامل.
لا يكفي أن تتمنى أن تكون من الناجين، بل لا بد أن تسأل: ما علامة
الناجين هنا؟

الجواب من الآية: أنهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، ولا يتبعون
ما أترف فيه الظالمون.

فالنجاة ليست دعوى وجدانية، بل طريقٌ له صفات.
بقيةٌ في الداخل، ونهيٌ في الخارج، وحريةٌ من الترف، ومخالفةٌ للظلم،
وثباتٌ أمام الكثرة.

وهذا يجعل الآية مرآةً شخصيةً لكل قارئ.

حين تقرأها لا تسأل فقط: من هم القليل في التاريخ؟

بل اسأل: هل أنا من القليل في موقعي؟

حين يسكت الناس في مجلسٍ عن باطلٍ واضح، هل أستطيع أن أقول كلمةً
حكيمةً عادلة؟

حين ينحرف الناس وراء ترفٍ يفسد قلوبهم، هل أستطيع أن أحفظ قلبي من

المقارنة والعبودية للصورة؟

حين يصير الظلم عادة، هل أستطيع أن لا أكون أداة فيه؟
حين تتغير الأسماء، هل أستطيع أن أسمى الحق حقًا والباطل باطلاً؟
حين يصبح الصالح غريبًا، هل أستطيع أن لا أخجل من غربته؟

هذه الأسئلة تصنع القليل الناجي.

لأن القليل لا يبدأ من لحظة كبرى فقط، بل من اختبارات يومية صغيرة.
كل يوم تعرض عليك الكثرة شيئًا من منطقتها.
وكل يوم يعرض عليك الترف شيئًا من بريقه.
وكل يوم يعرض عليك الفساد شيئًا من تبريره.
وكل يوم تختار: هل تتبع ما أترف فيه الناس، أم تحفظ بقيتك؟
والإنسان لا يصبح من أولي البقية دفعةً واحدة، بل يتكون عبر سلسلة من
الاختيارات التي يثبت فيها للحق حين يكون الباطل أسهل.

ومن هنا فإن الكتيب لا يريد أن يصنع قارئًا معجبًا بفكرة القليل الناجي فقط،
بل قارئًا يخاف أن يكون من الكثرة الغافلة، ويرجو أن يكون من القليل
العامل.

فقد نمدح أولي البقية بالسنتنا، ثم نخذلهم بمواقفنا.
وقد نحب صورة الناجين في القصص، ثم إذا جاء امتحان الواقع اخترنا
السلامة.

وقد نكره الترف نظريًا، ثم نتبعه عمليًا.
وقد نذم الفساد العام، ثم نشارك في بعض أسبابه الصغيرة.
ولهذا كان صدق الإنسان مع نفسه أصل الطريق.

إن القليل الناجي لا يولد من الكلام عن النجاة، بل من قرارٍ داخلي: ألا أكون تابعًا للفساد ولو كثر أهله، وألا أكون عبدًا للترف ولو لمع بريقه، وألا أكون صامتًا عن الحق حيث أقدر على بيانه، وألا أحتقر موضعي مهما كان صغيرًا، وألا أغتر بثباتي إذا ثبت، وألا أياس إذا قلّ السالكون، وألا أنسى أن النجاة من الله وحده.

وما أجمل أن يختتم هذا الفصل بهذا المعنى:

القليل الذي ينجو ليس قليلًا في ميزان الله.
قد يكون قليلًا في العدد، لكنه كبيرٌ في الأثر.
قليلًا في الضجيج، لكنه عظيمٌ في الشهادة.
قليلًا في عيون المترفين، لكنه ثقیلٌ في سنن النجاة.
به تبقى الحجة.

وبه يُحفظ الاسم الصحيح للأشياء.
وبه يعرف الناس أن الفساد لم يصبح قدرًا نهائيًا.
وبه تبقى في الأمة نافذةٌ إلى الرجوع.
وبه تتأخر العقوبة أو تُدفع بإذن الله، ما دام الإصلاح قائمًا.

فإذا رأيت الحق قليلًا، فلا تزه فيه.
وإذا رأيت أهله غرباء، فلا تستوحش منهم.
وإذا رأيت الباطل كثيرًا، فلا تطمئن إليه.
وإذا رأيت الترف غالبًا، فلا تتبعه.
وإذا رأيت الناهين عن الفساد متعبين، فلا تتركهم وحدهم.
وإذا لم تجد حولك كثيرًا من أولي البقية، فابدأ بنفسك؛ فربما كانت البقية

التي تحفظ الله بها موضعك تبدأ من قلب واحد صدق مع ربه، ثم صار نوره سبباً في إيقاظ غيره.

إن قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ليس دعوة إلى اليأس من الناس، بل دعوة إلى علو الهمة في زمن الكثرة الغافلة. ليس معناه أن الطريق مغلق، بل أن الطريق عزيز. وليس معناه أن النجاة مستحيلة، بل أن النجاة تحتاج إلى قلب لا يبيع بقيته. فاللهم اجعلنا من القليل الذي تنجيه، لا من الكثرة التي تتبع ما أترفت فيه، واجعل فينا بقيةً تنهى عن الفساد في الأرض، وتقوم بالحق رحمةً لا كبراً، وثباتاً لا قسوة، وبصيرةً لا تهوراً، وإخلاصاً لا طلباً للعلو في الناس.

الفصل الثامن

أولو بَقِيَّةٍ في زماننا

ليست آية (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ) آية تُقرأ على أطلال الأمم البائدة فحسب، ولا سؤالاً موجَّهاً إلى قوم نوحٍ وعادٍ وثمودٍ ومدينٍ وفرعونٍ وحدهم، بل هي سؤالٌ مفتوحٌ في وجه كل زمانٍ تتغير فيه صور الفساد، وتتبدل أقنعتُه، وتتنوع لغاتُه، لكنه يبقى في جوهره خروجاً بالحياة عن ميزان الله، وانقلاباً بالنعمة عن وظيفتها، وتحويلاً للأرض من مجال أمانةٍ واستخلافٍ إلى ساحةٍ للشهوة والظلم والتزييف والغفلة.

إن الآية لا تسمح لنا أن نبقي متفرجين على التاريخ، ولا أن نتحدث عن أولي البقية كأنهم قومٌ غامضون ظهرُوا في زمنٍ بعيدٍ ثم انقطع أثرهم، بل تدفعنا إلى السؤال المباشر: من هم أولو البقية اليوم؟ أين يظهرون؟ ما صورتهم في زمنٍ لم يعد الفساد فيه محصوراً في سوقٍ واحد، أو سلطانٍ واحد، أو قومٍ واحد، بل صار قادراً على أن ينتقل بالصورة والكلمة والذوق والسوق والفكرة والنموذج الاجتماعي حتى يدخل البيوت والجيوب والقلوب بلا استئذان؟

إن أولي البقية في زماننا ليسوا جماعةً واحدةً بالضرورة، ولا عنواناً تنظيمياً، ولا طبقةً تحتكر الإصلاح، ولا وجوهاً ظاهرةً فقط، بل هم كل من بقي في موضعه شاهداً على الحق، مانعاً من الفساد بقدر استطاعته، حافظاً للمعنى حين تتكاثر أسباب ضياعه، صادقاً مع الله حين تصير المجاملة أيسر، حرّاً

من الداخل حين تشتد عبودية الصورة والمال والقبول الاجتماعي، قادرًا على أن يقول للباطل: لست حقًا ولو صفق لك الناس، وأن يقول للترف: لست نجاحًا إذا قطعت القلب عن الله، وأن يقول للفساد: لن أكون جسرًا لك في موضعي.

أولو البقية اليوم هم العالم الذي لا يبيع علمه، ولا يجعل النصوص خادمةً لأهواء الناس أو أهواء السلطان أو ضغط العصر، ولا يختبئ خلف الغموض حين يحتاج الناس إلى بيان، ولا يشتد حيث ينبغي الرفق، ولا يميع حيث ينبغي الحزم. هو الذي يعرف أن العلم أمانة، وأن الكلمة الشرعية إذا انفصلت عن التقوى صارت خطرًا؛ لأنها قد تمنح الباطل غطاءً من الدين، أو تمنح الجبن اسم الحكمة، أو تمنح المداينة صورة المصلحة. العالم من أولي البقية إذا بقي في علمه خوفٌ من الله يمنعه أن يحرف، ورحمةٌ بالناس تمنعه أن يقسو، وشجاعةٌ تمنعه أن يسكت حيث يجب البيان.

وهم الكاتب الذي لا يخون الكلمة.

ذلك أن الكلمة في زماننا لم تعد هامشًا، بل صارت من أعظم ميادين تشكيل الوعي. قد تُهدم بها الفطرة، وقد يُزيّف بها التاريخ، وقد يُجمل بها الفساد، وقد تُخدّر بها الجماهير، وقد يُعاد بها تعريف القيم. فالكاتب من أولي البقية ليس من يحسن العبارة فحسب، بل من يحرس المعنى داخل العبارة؛ لا يجعل البلاغة ستارًا للباطل، ولا يجعل الجمال خادمًا للغواية، ولا يجعل اللغة سوقًا يبيع فيها ضميره لمن يدفع أكثر أو يصفق أكثر. إنه يعرف أن الكلمة إذا فارقت الأمانة صارت أداة فساد، وأن الكاتب الذي يزين

الانحراف أخطر أحياناً من المفسد الذي يمارسه بلا بيان؛ لأن الأول يصنع للفساد فلسفةً وذوقاً وشرعيةً نفسيةً.

وأولو البقية اليوم هم المربّون الذين يدركون أن المعركة على الإنسان تبدأ مبكراً، وأن الطفل لا يُربى بالمعلومات وحدها، بل بالمناخ، والقذوة، واللغة، والحياء، وطريقة النظر إلى الله والناس والدنيا والآخرة. فالأب من أولي البقية إذا لم يترك بيته نهباً للشاشات، ولا للذوق الهابط، ولا للمقارنات المريضة، ولا لعبودية الاستهلاك، بل غرس في أهله معنى العبودية لله، وكرامة الحياء، وحب الصدق، وبصيرة التفريق بين النجاح الظاهر والنجاة الحقيقية. والأم من أولي البقية إذا جعلت البيت موضع سكينه وإيمان، لا مجرد مكانٍ للأكل والنوم، وإذا حفظت في أبنائها دفء الفطرة قبل أن تبردها قسوة العالم.

والمعلم من أولي البقية إذا أدرك أن التعليم ليس ملء العقول بالمعلومات، بل إقامة الميزان في الإنسان.

إنه لا يعلم الطالب كيف ينجح في الامتحان فحسب، بل كيف لا يخون علمه بعد أن ينجح. لا يعطيه أدوات العيش فقط، بل يوقظ فيه سؤال المعنى. لا يصنع منه آلة ماهرة بلا ضمير، بل إنساناً يعرف أن المعرفة مسؤولية. وما أخطر المعرفة إذا وصلت إلى عقلٍ بلا أمانة؛ فإنها تمنحه قدرةً على الفساد أكبر مما كان يملك قبلها. لذلك كان المعلم الصادق من أولي البقية، لأنه يحرس المستقبل في عقولٍ لا تزال قابلةً للتشكيل.

وأولو البقية اليوم هم الذين يحرسون الأسواق من أن تتحول إلى غاباتٍ أنيقة. التاجر الأمين، والموظف الصادق، وصاحب العمل الذي لا يستغل حاجة الناس، والعامل الذي لا يغش، والمحاسب الذي لا يزور، والمسؤول الذي لا

يبتلع الحقوق، كل هؤلاء قد يكونون من أولي البقية إذا فهموا أن الفساد في الأرض لا يبدأ دائماً من الشعارات الكبرى، بل قد يبدأ من فاتورة مزورة، وميزان ناقص، ورشوة صغيرة، وتأخير حق عن صاحبه، وكذبة في وصف بضاعة، واستغلال حاجة ضعيف. السوق إذا خلا من أولي البقية صار مدرسة للنهب، وإذا حضر فيه أهل الأمانة بقي فيه شيء من البركة، ولو تكاثر حولهم الغش.

وأولو البقية اليوم هم أصحاب المواقع والمسؤوليات الذين يعلمون أن المنصب ليس زخرفة اجتماعية، بل ابتلاء.

فمن ولي أمرًا من أمور الناس ثم جعل القوة طريقًا للعدل كان من أهل البقية، ومن جعلها طريقًا للانتقام أو الاستعلاء أو جمع المصالح كان من أدوات الفساد. صاحب المنصب من أولي البقية إذا خاف من دعوة المظلوم أكثر مما يخاف من غضب المتنفذين، وإذا رأى في الضعيف أمانة لا عبثًا، وإذا فهم أن توقيعه قد يرفع ظلمًا أو يصنع ظلمًا، وأن الكرسي الذي يجلس عليه اليوم قد يكون شاهدًا عليه غدًا. وما أكثر ما تحتاج الأمم إلى هذا الصنف: قوي لا يطغى، وقادر لا يستغل، ومسؤول لا ينسى أنه مسؤول.

وهم كذلك الشباب الذين يعيشون في زمن تتكاثر فيه الدعوات إلى الذوبان، ثم يختارون أن يحفظوا بقيتهم.

شاب لا يرضى أن يكون نسخة من الموجة، ولا يجعل رفاقه مرجعًا أعلى من الحق، ولا يرى في الحرام بطولة، ولا في الوقاحة تحررًا، ولا في الاستهلاك قيمة، ولا في السخرية من الطهر ذكاء. شاب يعرف أن الغربة في طريق الحق أكرم من الألفة في طريق الفساد، وأن مقاومة الضغط

الاجتماعي نوعٌ من الجهاد الداخلي، وأن الإنسان لا يقاس بعدد من يصفقون له، بل بما يبقى في قلبه من صدقٍ إذا خلا بنفسه وربه. هذا الشاب من أولي البقية ولو لم يعرفه أحد.

ومن أولي البقية اليوم من يحفظون الحياء في زمنٍ يُراد له أن يكون عبثاً، ويحفظون العفة في زمنٍ يعاد فيه تعريف الطهارة كأنها ضيقٌ بالحياة، ويحفظون الأسرة في زمنٍ تتعرض فيه للتفكيك الناعم، ويحفظون معنى الرجولة والأنوثة من العبث، ويحفظون الرحمة من القسوة، ويحفظون القوة من التوحش، ويحفظون الحرية من الانقلاب إلى عبودية الهوى. فكل قيمة قرآنية كبرى تحتاج في زمن الفساد إلى حراسٍ لا يكتفون بمدحها، بل يعيشونها، ويدافعون عنها، ويجعلونها ممكنةً في الواقع.

وأولو البقية ليسوا دائماً أصحاب الأصوات العالية.

قد يكون بعضهم صامتاً في الظاهر، لكنه يمارس إصلاحاً عميقاً في موضعه. امرأة تحفظ بيتاً كاملاً من الانهيار. رجلٌ يمنع ظلماً لا يعلم به الناس. موظفٌ يردّ حقاً كان سيضيع. معلمٌ يوقظ طالباً واحداً من الغفلة. كاتبٌ يزرع في قارئٍ معنى لا يراه إلا الله. صديقٌ يمنع صديقه من طريقٍ سيهلكه. داعيةٌ يفتح باب توبةٍ لإنسانٍ كاد ييأس. هؤلاء لا تصنع لهم الشاشات تماثيل، لكنهم في سنن النجاة أعظم من كثيرٍ من الضجيج العابر.

ومن الخطأ أن نبحث عن أولي البقية في الصورة المثالية الخالية من الضعف. فهم بشر، يخطئون ويتوبون، يتعبون ويقاومون، يضعفون ثم ينهضون، لكن الفرق أنهم لا يبيعون الميزان. قد تقع منهم زلة، لكنهم لا يحولون الزلة إلى مذهب. قد يتألمون من كلفة الطريق، لكنهم لا يرضون بالانسحاب النهائي.

قد لا يعرفون كيف يصلحون كل شيء، لكنهم لا يرضون أن يكونوا جزءاً من الفساد. فالبقية ليست عصمة، بل صدقٌ مستمر في الرجوع إلى الحق والقيام بما يُستطاع منه.

وهنا ينبغي أن نفرّق بين حامل البقية ومدّعي البقية.

حامل البقية يزداد تواضعاً كلما رأى فضل الله عليه، ومدعيها يزداد تعالياً كلما رأى خطأ الناس.

حامل البقية ينهى عن الفساد رحمةً، ومدعيها ينهى تشفيماً.

حامل البقية يحاسب نفسه قبل أن يحاكم العالم، ومدعيها يجعل نفسه معياراً لا يُراجع.

حامل البقية يفرح بتوبة الناس، ومدعيها يستمتع بإدانتهم.

حامل البقية يقيم الحق بعدل، ومدعيها قد يستعمل الحق لتوسيع غروره. وهذا الفرق دقيق؛ لأن بعض الفساد قد يدخل على باب الإصلاح نفسه إذا غابت تزكية النفس.

لذلك يحتاج أولو البقية في زماننا إلى تربيةٍ داخليةٍ عميقة قبل أن ينهضوا بوظيفتهم الخارجية.

يحتاجون إلى قرآنٍ لا يقرؤونه للبركة وحدها، بل ليعيد بناء موازينهم.

وإلى صلاةٍ تجعلهم أحراراً من الناس لأنهم يقفون بين يدي الله.

وإلى ذكرٍ يطرد عنهم غفلة الترف.

وإلى علمٍ يقيهم من فوضى الحماسة.

وإلى صحبةٍ صالحةٍ تمنعهم من وحشة الطريق.

وإلى توبةٍ دائمةٍ تكسر العجب.

وإلى صبرٍ طويلٍ؛ لأن الفساد لا ينهار أمام أول كلمة، ولأن الإصلاح عملٌ تراكميٌّ يحتاج إلى نفسٍ ممتد.

ومن أكبر أخطار هذا الزمان أن الفساد فيه لم يعد يأتي دائماً في صورةٍ منفرة، بل يأتي في صورةٍ جذابةٍ متقنة الإخراج. يأتي في صورة إعلانٍ جميل، أو فكرةٍ براقة، أو مصطلحٍ ناعم، أو نمط حياةٍ يلمع على الشاشة، أو خطابٍ عاطفيٍّ يصادر الحكم، أو ثقافةٍ تجعل الإنسان يخجل من ثوابته. ولهذا صار من وظائف أولي البقية أن يمتلكوا فقه الصورة كما يمتلكون فقه الكلمة، وأن يدركوا أن كثيراً من الوعي المعاصر لا يصنعه البرهان فقط، بل تصنعه المشاهد المتكررة والرغبات المتراكمة والقذوات المصنوعة.

فالفساد حين يدخل بالصورة لا يقول للإنسان: اترك دينك، بل يقول له: انظر كم يبدو الانحراف جميلاً. ولا يقول له: كن عبداً للسوق، بل يقول: اشتر لتكون جديراً بالتقدير. ولا يقول له: انس الآخرة، بل يملأ يومه بما يمنعه من تذكرها. ولا يقول له: احتقر الحياء، بل يعرض له نماذج تجعل الحياء يبدو ضعفاً أو تخلفاً.

ومن هنا يحتاج أولو البقية إلى أن يكشفوا لا فساد الفعل وحده، بل فساد الإخراج الذي يصنع قابلية القبول.

وهذا يجعل معركة البقية اليوم معركةً على الخيال أيضاً. فالأمم لا تُقاد بالأوامر فقط، بل بالصور التي تسكن خيالها. إذا كان خيال الناس ممتلئاً بصورة المترف الناجح، والمنفلت الحر، والمحتال

الذكي، والقوي الظالم، والمرأة المستهلكة كصورة، والرجل الفارغ من المسؤولية، فإن الإصلاح لن ينجح بمجرد المواعظ. لا بد أن يُعاد بناء الخيال نفسه: صورة الإنسان الكريم، والأسرة الساكنة، والعالم الصادق، والشاب العفيف، والغني الشاكر، والقوي العادل، والكاتب الأمين، والجمال المهتدي، والحرية المنضبطة بالعبودية لله.

وهنا يظهر دور الأدب والفكر والفن المباح والبيان الجميل في خدمة الإصلاح؛ لأن الحق لا ينبغي أن يُقدّم دائماً في صورة جافة طاردة، بل في صورة تكشف جماله الحقيقي من غير تزييف ولا تمويه. أولو البقية ليسوا أعداء الجمال، بل أعداء الجمال حين ينفصل عن الهداية. وهم لا يرفضون قوة البيان، بل يرفضون استعمال البيان في تزيين الفساد. ولذلك يحتاج زماننا إلى بيان إيماني عميق يحسن كشف الباطل، ويحسن في الوقت نفسه إظهار أن الطهر ليس قبحاً، وأن الالتزام ليس ضيقاً، وأن الحياء ليس انطفاءً، وأن القناعة ليست فشلاً، وأن الإيمان ليس انسحاباً من الحياة، بل هداية للحياة.

ومن أولي البقية في زماننا من يحفظون المعنى من الابتذال. فالكلمات الكبرى قد تُفرغ من معناها إذا أكثر الناس استعمالها بلا صدق: الحرية، العدالة، الكرامة، الرحمة، التجديد، الإصلاح، التقدم، التسامح. قد تُستعمل كلمات الحق لحمل باطل خفي. وهنا يقوم صاحب البقية بمهمة دقيقة: لا يرفض الكلمة الجميلة لأنها استُعملت خطأ، ولا يقبلها بلا فحص لأنها جميلة، بل يسأل: ما مضمونها؟ إلى أين تقود؟ ماذا تخفي؟ ما علاقتها

بالوحي والعدل والفطرة؟

فليست كل كلمة براقية هدى، وليست كل راية جميلة نجاة.

وأولو البقية في زماننا يواجهون أيضًا فسادًا من نوع آخر: فساد اليأس. فحين يرى الإنسان اتساع الخلل، قد يقول: لا فائدة. وهذا اليأس نفسه يخدم الفساد؛ لأنه يمنحه المجال بلا مقاومة. ولذلك فإن من البقية أن تحفظ الأمل القرآني، لا الأمل الساذج الذي ينكر المرض، بل الأمل العامل الذي يعرف المرض ويقاومه. الأمل الذي يقول: ما دام في الأمة من يصلي، ويقراء، ويتوب، وينصح، ويكتب، ويربي، ويعدل، ويأبى، فليست الروح قد ماتت. وما دام الله يخرج الحي من الميت، ويهدي من يشاء، ويفتح أبواب التوبة، فلا يجوز أن يتحول تشخيص الفساد إلى استسلام له.

إن أولي البقية لا يملكون رفاهية اليأس؛ لأن اليأس يقتل القدرة على النهي. من يئس سكت، ومن سكت أراح الفساد.

لكنهم كذلك لا يملكون رفاهية الوهم؛ لأن الوهم يمنع التشخيص. فهم بين بصيرة ترى الخلل كما هو، ورجاء يعرف أن الله أوسع من الخلل. لا يزيّتون الواقع، ولا يدفنونه.

لا يقولون: كل شيء بخير، ولا يقولون: لا خير في شيء. بل يقولون: هنا فسادٌ يجب أن يُنهى عنه، وهنا بقيةٌ يجب أن تُقوّى، وهنا باب إصلاحٍ يجب أن يُفتح، وهنا خطرٌ يجب أن يُسمّى باسمه.

ومن أجل ذلك فإن صناعة أولي البقية ليست عملاً هامشيًا، بل مشروعًا تربويًا وحضاريًا.

نحتاج إلى تربية تصنع إنسانًا لا ينهار أمام الكثرة.

وتعليم يصنع عقلاً لا يُخدع بالأسماء.
وخطاب ديني يصنع قلباً يخاف الله لا الناس.
وأدب يصنع خيالاً طاهراً لا خيالاً مستهلكاً.
وأسرة تصنع مناعةً داخليةً قبل أن يخرج الأبناء إلى العالم.
وسوق يعيد الاعتبار للأمانة.
وسياسة تفهم أن العدل ليس شعاراً بل شرط بقاء.
ومجتمع يكرم الناصحين ولا يطردهم، يسمع للمصلحين ولا يسلمهم
للسخرية.

فإذا أردنا أن نبحث عن أولي البقية، فلا نبحث عنهم في مكان واحد.
ابحث عنهم في العالم الصادق، وفي الكاتب الأمين، وفي الأم الصابرة، وفي
الأب الحارس، وفي المعلم الذي يربي، وفي التاجر الذي لا يغش، وفي
المسؤول الذي لا يظلم، وفي الشاب الذي يعف، وفي الفتاة التي تحفظ
كرامتها، وفي الجار الذي يصون حق جاره، وفي الصديق الذي ينصح، وفي
كل قلب بقي فيه من الحق ما يمنعه من التطبيع مع الفساد.

لكن السؤال الأهم ليس: أين هم فقط؟

بل: كيف نكثرهم؟

لأن الآية قالت: **(إِلَّا قَلِيلًا)**، وكأنها تكشف أن القلة واقع مؤلم، لكنه لا ينبغي
أن يكون ذريعةً للاستسلام. بل ينبغي أن يدفعنا إلى صناعة البقية؛ إلى أن
نربي في كل موضع من يحمل شيئاً من هذه المناعة، حتى لا يبقى الإصلاح
معلقاً على أفراد معدودين إذا غابوا انكشف الجسد كله.
الامة التي تريد النجاة لا تكتفي بأن يكون فيها نجمٌ مصلحٌ واحد، بل تحتاج

إلى شبكةٍ واسعةٍ من الضمائر: في البيت، والمدرسة، والسوق، والمنبر، والقضاء، والإعلام، والكتابة، والعلاقات اليومية.

وصناعة أولي البقية تبدأ من إعادة الاعتبار إلى ثلاثة معانٍ كبرى:

أولها: **المعيار**.

أن يعرف الناس أن الحق لا يتغير لأن الناس تغيروا، وأن الفساد لا يصير صلاحًا لأنه شاع، وأن الترف لا يصير فضيلةً لأنه لمع، وأن الكثرة ليست حجةً بذاتها، وأن الوحي هو الميزان الأعلى الذي تُردّ إليه الأسماء والأفعال.

وثانيها: **الشجاعة**.

لا شجاعة التهور، بل شجاعة الثبات. أن يتعلم الإنسان كيف يقول الحق بقدر استطاعته، وكيف لا يخجل من دينه، وكيف لا يبيع ضميره للقبول الاجتماعي، وكيف يتحمل كلفة الموقف حين لا يكون الموقف مريحًا.

وثالثها: **الرحمة**.

لأن الإصلاح إذا فقد الرحمة صار قسوة، وإذا فقد الشجاعة صار مDAHنة، وإذا فقد المعيار صار فوضى. ولا بد لأولي البقية من هذه الثلاثية: معيارٌ يميز، وشجاعةٌ تنهى، ورحمةٌ تهدي.

وهذه الثلاثية هي ما يحتاجه زماننا بشدة.

فبعض الناس عنده معيارٌ بلا رحمة، فيقسو.

وبعضهم عنده رحمةٌ بلا معيار، فيمّيع.

وبعضهم عنده شجاعةٌ بلا علم، فيفسد.

وبعضهم عنده علمٌ بلا شجاعة، فيسكت.

أما أولو البقية فهم الذين يجمعون ما أمكنهم من هذه المعاني، ويظلون في مجاهدةٍ دائمةٍ لإصلاح أنفسهم وهم يصلحون غيرهم.

إن زمننا لا يحتاج إلى خطابٍ يلعن الفساد ثم يترك أسبابه، ولا إلى خطابٍ يصف المرض ثم ييأس من العلاج، ولا إلى خطابٍ يخاصم الناس ولا يفتح لهم أبواب الرجوع، بل يحتاج إلى أولي بقيةٍ يفهمون الخراب في عمقه، ويقاومونه في مواضعه، ويصنعون بدائل صالحة، ويستردون المعاني المخطوفة، ويعيدون للناس الثقة بأن الطهر ممكن، وأن العدل ممكن، وأن الأمانة ممكنة، وأن الحياة تحت هداية الله أوسع وأكرم من الحياة تحت عبودية الهوى والترف.

وفي هذا الزمان، قد يكون من أعظم صور البقية أن يحافظ الإنسان على قلبٍ غير قابلٍ للبيع.

قلبٍ لا يبيع الحق للمال.

ولا يبيع الحياء للشهوة.

ولا يبيع الأمانة للمنصب.

ولا يبيع الكلمة للتصفيق.

ولا يبيع الدين لرضا الناس.

ولا يبيع الآخرة لصورةٍ عابرة.

فإذا بقي هذا القلب، بقيت البقية.

وإذا كثرت هذه القلوب، صار للأمة جهازٌ مناعةٍ جديد.

ولذلك فإن سؤال الآية يجب أن يتحول في زماننا إلى مشروع شخصي وجماعي:

كيف أكون من أولي البقية في موضعي؟

كيف أحفظ بيتي من الفساد؟

كيف أحفظ كلمتي من التزييف؟

كيف أحفظ مالي من الحرام؟

كيف أحفظ علمي من الخيانة؟

كيف أحفظ قلبي من الترف؟

كيف أحفظ حضوري الاجتماعي من المداهنة؟

كيف أحفظ قدرتي على النهي دون قسوة، وعلى الرحمة دون تمبيع، وعلى

الصبر دون استسلام؟

هذه الأسئلة ليست وعظًا عامًا، بل تدريبٌ على النجاة.

لأن أولي البقية لا يظهرون فجأةً عند الكوارث، بل يتكونون في هذه التفاصيل.

من حفظ نفسه في الصغير كان أقدر على الثبات في الكبير.

ومن باع ميزانه في التفاصيل لن يشتريه عند الامتحان الأكبر.

ومن اعتاد تسمية الأشياء بأسمائها في يومه، كان أقدر على مواجهة

التزوير حين يتضخم.

ومن ربّى قلبه على الشكر، لم يتبع ما أترف فيه الناس بسهولة.

وهكذا يصبح معنى الآية حاضرًا في كل زمن:

إذا غاب أولو البقية، تمدد الفساد.

وإذا تمدد الفساد، قاد الترف الظالمين.
وإذا قاد الترف، خُدرت الأمة.
وإذا خُدرت، استغربت صوت الناصحين.
وإذا استغربت صوت الناصحين، ضاقت بأسباب نجاتها.
أما إذا بقي فيها أولو بقية، فإنها تظل تملك بابًا إلى الرجوع، ولو كان الباب ضيقًا، وتظل تملك شاهدًا على الحق، ولو كان الشاهد قليلًا، وتظل تملك قدرةً على مقاومة الهلاك، ولو أحاطت بها أسبابه.

فليست القضية إذن أن نسأل عن الماضي فقط، بل أن نسمع النداء الآن:

يا أهل العلم، كونوا من أولي البقية.
يا أهل القلم، كونوا من أولي البقية.
يا أهل البيوت، كونوا من أولي البقية.
يا أهل الأسواق، كونوا من أولي البقية.
يا أهل المسؤوليات، كونوا من أولي البقية.
يا شباب الأمة، كونوا من أولي البقية.
يا كل من بقي في قلبه نورٌ من الوحي، لا تتركوه ينطفئ تحت رياح الترف والفساد.

إن أمةً لا يزال فيها من يقول للحق نعم، وللفساد لا، وللترف قف، وللظلم انتهِ، وللزيف انكشف، وللمعنى عد، ليست أمةً ميتةً بعد.
قد تكون مريضة، مرهقة، مخدوعة في بعض مواضعها، لكنها لم تمت ما دام فيها جهاز مناعةٍ يعمل، وما دام فيها من يحملون البقية لا بوصفها شعارًا، بل بوصفها أمانةً ثقيلة.

وأخيرًا:

لا ينبغي أن ينتظر الإنسان أن يصير عظيمًا في أعين الناس ليكون من أولي البقية.

ابدأ من حيث أنت.

من كلمة لا تزورها.

من حق لا تأكله.

من بيت لا تتركه للخراب.

من قلب لا تسلمه للترف.

من موقف لا تتبع فيه ضميرك.

من نصيحة تقولها بحكمة.

من فساد لا تشارك فيه.

من معنى تحرسه ولو في مساحة صغيرة.

فربما كانت المساحة الصغيرة التي تحفظها اليوم هي الموضع الذي يدفع الله به فسادًا كبيرًا غدًا.

وربما كانت كلمة واحدة صادقة سببًا في إيقاظ قلب.

وربما كان موقف خفي لا يراه الناس مما يراه الله عظيمًا.

وربما كانت البقية التي تحتقرها في نفسك بذرة نجا لك ولغيرك.

إن أولي البقية في زماننا ليسوا أسطورةً من الماضي، بل إمكانٌ مفتوحٌ لكل من صدق مع الله، وحفظ ميزانه، وقام بما يستطيع من النهي والإصلاح. والآية لا تسألنا لتدين الأمم السابقة فقط، بل لتوقظ فينا هذا السؤال الحاسم:

هل سنكون من الذين يتبعون ما أُتُرفوا فيه، أم من الذين يبقى فيهم من الحق
ما ينهى عن الفساد في الأرض؟

الخاتمة الكبرى

آخِرُ حُرَّاسِ الْمَعْنَى

بعد هذا المسار كله، نعود إلى الآية الأولى كأننا نعود إليها أعمق مما بدأنا، ونسمعها لا بوصفها جملةً في سياقٍ تاريخيٍّ مضى، بل بوصفها نداءً متجددًا في ضمير الأمة: **(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)**.

هذه الآية ليست مجرد بيانٍ عن علةٍ من علل هلاك الأمم، بل هي كشفٌ عن البنية العميقة للنجاة والهلاك معًا؛ فالأمم لا تهلك لأن الفساد وُجد فيها فحسب، بل لأنها فقدت أو كادت تفقد الذين ينهون عنه، ولا تسقط لأن المترفين ظهرُوا فيها فحسب، بل لأنهم صاروا قادة الذوق والقرار والمعنى حين غاب أولو البقية، ولا تنتهي لأنها لم تعرف الخير مطلقًا، بل لأنها تركت الخير ضعيفًا معزولًا لا يتحول إلى إصلاحٍ عام.

إن الآية تعلمنا أن الهلاك لا يبدأ دائمًا من لحظة الدمار، بل يبدأ قبل ذلك بكثير: حين يتراجع الإحساس بالفساد، وحين تصمت البقية، وحين يعتاد الناس القبيح، وحين تُزوّر الأسماء، وحين يصير الترف دليل نجاح، وحين يتبع الظالمون ما أُتْرِفوا فيه، وحين يتحول الصالحون إلى شهودٍ صامتين على خرابٍ يتسع كل يوم.

وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿أُولُوا بَقِيَّةً﴾ ندرك أن القرآن لا يبحث في أوقات الانهيار عن الكثرة الفارغة، ولا عن العمران الظاهر، ولا عن ضجيج الشعارات، بل يبحث عن ذلك المقدار الباقي من الحياة الحقيقية داخل الأمة: بقية من إيمان، وبقية من حياء، وبقية من بصيرة، وبقية من شجاعة، وبقية من عقل لم يسكره الترف، وبقية من ضمير لم تبعه المصلحة، وبقية من قلب لا يزال يخاف الله أكثر مما يخاف الناس.

هذه البقية هي آخر خط دفاع بين الأمة وبين الهلاك.

ليست قوة عسكرية بالضرورة، ولا ثروة اقتصادية، ولا دعاية إعلامية، ولا خطاباً مزيّناً عن الأمجاد، بل هي تلك المناعة الداخلية التي تجعل المجتمع قادراً على أن يقول: هذا حق، وهذا باطل؛ هذا صلاح، وهذا فساد؛ هذه نعمة تُشكر، وهذا ترف يُخشى؛ هذا عمرانٌ مبارك، وهذا خرابٌ يلبس ثوب العمران؛ هذا إصلاحٌ رحيم، وهذا تزيينٌ للانحدار.

فإذا بقي هذا الصوت، بقيت في الأمة قابلية الرجوع. وإذا اختفى، صار الفساد هو اللغة السائدة، وصار الباطل هو الذوق العام، وصار الناصح غريباً، وصار المترف قائداً، وصار الظالم مطمئناً، وصارت الأمة تتحرك نحو نهايتها وهي تظن أنها تمارس حياتها الطبيعية. ولهذا كان أولو البقية حراس المعنى.

يحرصون معنى العبودية لله حين يريد الإنسان أن يستقل بهواه.
ويحرصون معنى العدل حين تريد القوة أن تتحول إلى بطش.
ويحرصون معنى المال حين يريد السوق أن يتحول إلى افتراس.

ويحرسون معنى الحرية حين يريد الهوى أن يسمى عبوديته تحرراً.
ويحرسون معنى الجمال حين يريد الفساد أن يتزين.
ويحرسون معنى العلم حين يريد الذكاء أن يتحول إلى مكر.
ويحرسون معنى الدين حين يريد الجمود أو التميع أن يشوّها وجه الهداية.
ويحرسون معنى الإنسان حين تريد الشهوة أو السوق أو السلطة أن تختزله
في جسدٍ أو رقمٍ أو أداةٍ أو تابع.

ولذلك فإن غيابهم ليس نقصاً في عدد المصلحين فقط، بل غيابٌ للمعيار
نفسه.

الأمة بلا أولي بقية قد تملك كل شيءٍ إلا جهاز التمييز.

ترى ولا تبصر.

تسمع ولا تعتبر.

تتكلم ولا تقول حقاً.

تتحرك ولا تعرف إلى أين.

تتقدم في الوسائل وتراجع في الغايات.

تزداد صخباً وتفقد المعنى.

تراكم المكاسب وتخسر الإنسان.

إن أخطر ما يصيب الأمة ليس أن يوجد فيها المفسدون، فهذا قد يوجد في كل
زمن، وإنما أن يصير المفسدون هم أصحاب الثقة، وأن يصير المصلحون
موضع السخرية، وأن يتقدم من يزيّن للناس ما أترفوا فيه، ويتأخر من يذكرهم
بما سيُسألون عنه، وأن تُرفع أصوات المتعة وتنخفض أصوات العقابة، وأن

يقال للناصح: لا تفسد علينا راحتنا، مع أنه إنما يريد أن ينقذهم من راحةٍ تنتهي إلى خراب.

ومن هنا ندرك لماذا جاءت الآية بعدها بقوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ).

إنه القانون المقابل.

ليست القضية أن توجد في القرى طقوسٌ دينيةٌ معزولة، ولا مشاعر صالحة صامته، ولا أفرادٌ طيبون لا أثر لهم في الحياة العامة، بل أن يوجد فيها **مصلحون**.

أناسٌ يحملون الإصلاح إلى الواقع، ويمنعون الفساد من أن يتحول إلى قدر، ويقومون الحجة، ويفتحون أبواب الرجوع، ويشهدون على الحق، ويجعلون المجتمع يرى عيوبه قبل أن تتحول إلى مصيره.

وهذا لا يعني أن المصلحين يملكون دفع كل بلاءٍ بذواتهم، ولا أن وجودهم يغني عن توبة الأمة كلها، ولا أن الإصلاح عملٌ سهلٌ سريع الثمرة، لكنه يعني أن الأمة التي لا يزال فيها إصلاحٌ حيٌّ ليست كالتي مات فيها الإصلاح.

الأولى لا تزال تملك باباً إلى الرحمة.

والثانية قد أغلقت على نفسها أبواب التنبيه حتى لا تسمع إلا صوت رغبته.

إن أولو البقية ليسوا ملائكةً يمشون على الأرض، بل بشرٌ صادقون يقاومون ضعفهم قبل أن يقاوموا فساد غيرهم.

قد يخطئون، لكنهم لا يبررون الخطأ.

وقد يتعبون، لكنهم لا يبيعون المعنى.

وقد يقلّون، لكنهم لا يستوحشون من الحق.
وقد يؤذّون، لكنهم لا يجعلون الأذى سبباً لخيانة الأمانة.
وقد يفرحون باستجابة الناس، لكنهم لا يطلبون التصفيق.
وقد يحزنون من الإعراض، لكنهم لا ييأسون من رحمة الله.
إنهم قومٌ فهموا أن النجاة ليست في أن ينجو الإنسان بنفسه فقط، بل في أن يكون سبباً في نجاة غيره بقدر ما يستطيع.
فهم لا يكرهون المجتمع، بل يكرهون فسادَه.
ولا يحتقرون الناس، بل يخافون عليهم.
ولا يnehون عن المنكر ليظهروا فوق غيرهم، بل لأنهم يعرفون أن السكوت عن المنكر حين يستفحل ليس حياداً، بل مشاركةً بطريقةٍ ما في ترك النار تكبر.

ولهذا يجب أن تُقرأ هذه الآية لا كمجرد تأملٍ بليغ، بل كتكليفٍ أخلاقيٍّ ومعرفيٍّ وحضاريٍّ.
كل قارئٍ لها ينبغي أن يسأل نفسه:
ما موضعي من هذه الآية؟
هل أنا من الذين يحفظون البقية، أم من الذين يستهلكونها؟
هل أنهى عن الفساد حيث أقدر، أم أكتفي بأن ألعنه بعيداً عن كلفة الموقف؟
هل أقاوم الترف في قلبي، أم أتبع ما أترفت فيه وإن كنت أذمه بلساني؟
هل أسمى الأشياء بأسمائها، أم أشارك في تزوير اللغة؟
هل أنا صالحٌ منعزلٌ فقط، أم مصلحٌ بقدر طاقتي؟
هل بقي فيّ من الحياء ما يجعلني أتألم من الفساد، ومن الشجاعة ما يجعلني

أقاومه، ومن الرحمة ما يجعلني أنهى عنه بلا كبير، ومن الإخلاص ما يجعلني أطلب وجه الله لا وجوه الناس؟

هذه الأسئلة هي بداية صناعة أولي البقية.

فالبقية لا تبدأ من المنابر الكبرى فقط، بل تبدأ من القلب حين يرفض أن يستسلم.

تبدأ من كلمة صادقة في موضعها.

ومن امتناع عن باطل اعتاده الناس.

ومن بيت يحفظ من الانجراف.

ومن مال يُصان عن الحرام.

ومن كتابة لا تتبع المعنى.

ومن علم لا يخون الأمانة.

ومن منصب لا يظلم.

ومن شاب لا يخجل من الطهر.

ومن أمّ وأب يربيان على الفطرة.

ومن رجل وامرأة يعرفان أن الحياة ليست سباقاً في المظاهر، بل امتحاناً

في العبودية والأمانة والصدق.

وليس مطلوباً من الإنسان أن يصلح كل شيء، لكن مطلوب منه ألا يترك موضعه للفساد.

فكل موضع لا يقاوم فيه صاحبه الفساد يصبح ثغرة.

وكل ثغرة إذا كثرت صارت طريقاً عاماً للانقياد.

كما أن كل موضع يحفظ فيه الحق يصبح حصناً صغيراً، فإذا كثرت

الحصون عادت للأمة مناعتها.

إن جهاز المناعة لا يتكون من عضو واحد، بل من شبكة واسعة من الخلايا التي تعمل في مواضعها. وكذلك أولو البقية: ليسوا فردًا واحدًا ينتظر الجميع ظهوره، بل ضمائر كثيرة موزعة في الأمة، كلٌ يحرس موضعه.

ومن أجل ذلك فالأمة التي تريد النجاة لا بد أن تكرم أولي بقيتها، لا أن تسخر منهم.

تسمع للناصح قبل أن تنكسر.

وتراجع نفسها حين ترى من ينبهها.

وتعرف أن من يوقظها من نوم الترف أرحم بها ممن يغني لها وهي تمضي إلى الهاوية.

فليس كل من أزعجك عدوًا، ولا كل من أراحك ناصحًا.

قد يكون المزعج طبيبًا، والمريح مخدرًا.

وقد يكون الذي يقول لك: قف، أصدق رحمةً من الذي يقول لك: امض حيث تشتهي.

إن من علامات الوعي أن تميز الأمة بين صوت الإصلاح وصوت التشفي، وبين النصح والتسلط، وبين الرحمة والقسوة، وبين الحكمة والمداهنة، وبين الشجاعة والتهور.

فكما أن غياب النهي خطر، فإن فساد النهي خطرٌ أيضًا.

ولذلك لا بد لأولي البقية من تربية مستمرة لأنفسهم: أن يحملوا الحق بخلق يليق به، وأن يجمعوا بين الصلابة والرحمة، وأن لا يجعلوا النهي عن الفساد بابًا إلى ظلم الناس، وأن لا ينسوا أن الله الذي أمرهم بالحق أمرهم

بالعدل، وأن الله ليس كمثله شيء، وأن الوحي نورٌ وهدايةٌ ورحمة، لا أداةً لعلو النفس على الخلق.

إن المصلح القرآني لا يطارد عيوب الناس ليتغذى على سقوطهم، بل يبحث عن أبواب نجاتهم.

يعرف أن الفساد درجات، وأن الناس ليسوا سواء، وأن المخطئ غير المستكبر، وأن الضعيف غير المجرم المنظم، وأن من وقع في الفساد يحتاج أحياناً إلى سترٍ ورحمةٍ ويدٍ تنتشله، بينما يحتاج المفسد المستعلي إلى فضحٍ وردعٍ وبيان.

هذه الدقة هي التي تجعل الإصلاح نوراً لا فوضى.

غير أن هذه الرحمة لا تعني تميع الحق.

فالحق إذا ذاب في المجاملة لم يعد حقاً فاعلاً.

والنهي إذا خاف من تسمية الفساد باسمه صار جزءاً من ثقافة التزوير.

والإصلاح إذا تحول إلى عباراتٍ لطيفةٍ لا تمس مواضع الخلل صار زينةً لفظيةً لا جهاز مناعة.

لذلك يحتاج أولو البقية إلى شجاعةٍ لا تتوحش، ورحمةٍ لا تميع، وحكمةٍ لا تنهز، وبصيرةٍ لا تغتر بالمظاهر.

إن الآية في عمقها تضعنا أمام صراعين:

صراعٍ بين البقية والفساد، وصراعٍ بين النهي والترف.

فالفساد يريد أن يبتلع ما بقي من الحق، والترف يريد أن يخدر من يفترض أن ينهوا عنه.

وإذا اجتمع فسادٌ يتمدد، وترفٌ يخدر، وصمتٌ يتستر باسم الحكمة، كانت

الأمة على خطرٍ عظيم.

أما إذا وجدت بقيةً تنهى، وضماناً تقاوم، وقلوبٌ لا تُشتري، والسنة لا تُزور، وأيدٍ تعمل للإصلاح، فقد بقي في الأمة ما يستدعي الرجاء.

ولهذا ليست الخاتمة هنا نهايةً للمعنى، بل بداية سؤالٍ عملي:

كيف نصير من أولي البقية؟

نصير منهم حين نعيد بناء علاقتنا بالوحي، لا بوصفه نصاً يُتلى فحسب، بل ميزاناً تُردّ إليه الحياة.

وحين نربي في أنفسنا حساسيةً تجاه الفساد، فلا يموت فينا الألم من القبيح. وحين نتحرر من عبودية الترف، فلا نقيس قيمتنا بما نملك ولا بما يراه الناس.

وحين نحفظ لغتنا من التزوير، فلا نسمي الباطل بأسماء الحق.

وحين نخرج من الصلاح المنعزل إلى الإصلاح الممكن.

وحين نعرف أن كل موضع نحن فيه هو موضع أمانة.

وحين نصبر على وحشة الطريق إذا قلّ السائرون.

وحين نطلب من الله النجاة، لا معتمدين على أنفسنا، بل خائفين من ضعفها، راجين حفظه وتوفيقه.

إن الدعاء هنا ليس خاتمةً شكلية، بل ضرورة.

لأن الثبات من الله.

والبصيرة من الله.

والنجاة من الله.

والعبد مهما بلغ من علمٍ وفكرٍ وغيره لا يأمن على نفسه إن وكله الله إليها.

فكم من إنسانٍ بدأ ناصحًا ثم استدرجه العجب.
وكم من إنسانٍ ذمّ الترف ثم اتبعه حين قُدّر له.
وكم من إنسانٍ أنكر الفساد حتى إذا صار له فيه نصيبٌ سكت عنه.
وكم من إنسانٍ حمل البقية زمناً ثم باعها عند أول فتنةٍ عظيمة.

لذلك لا بد أن يقول القلب دائماً:

يا رب، لا تجعلني من الذين يتبعون ما أُترفوا فيه.
ولا تجعلني من الذين يرون الفساد ثم يسكتون عنه وهم قادرون.
ولا تجعلني من الذين يزينون الباطل بالكلمة الجميلة.
ولا تجعلني من الذين إذا رأوا كثرة الهالكين استوحشوا من طريق النجاة.
واجعل في قلبي بقيةً من نورك وهداك، تحفظني من الفساد، وتجعلني رحمةً
مصلحةً لا فتنةً قاسيةً.

إن أعظم ما يمكن أن يخرج به القارئ من هذا الكتّيب أن يفهم أن أولي
البقية ليسوا عنواناً للتاريخ، بل تكليفٌ للمستقبل.
إنهم ليسوا قومًا نبحت عنهم في صفحات الماضي فقط، بل صورةٌ ينبغي أن
تتكرر في كل زمن، لأن الفساد يتكرر، والترف يتكرر، والظلم يتكرر،
وحاجة الأمة إلى من ينهى ويتبصر ويتحمل لا تنقطع.

كل زمنٍ له عادته وثمرته ومديته وفرعونه بصورةٍ من الصور.
وكل زمنٍ له مترفوه الذين يريدون للحياة أن تدور حول ما أُترفوا فيه.
وكل زمنٍ له مفسدوه الذين يريدون تغيير الأسماء قبل تغيير الأفعال.
وكل زمنٍ يحتاج إلى نوحٍ من الصبر، وهودٍ من الصدع، وصالحٍ من البيان،
ولوطٍ من حفظ الفطرة، وشعيبٍ من أمانة السوق، وموسى من مواجهة

الطغيان، لا بمعنى النبوة التي ختمها الله بمحمد صلى الله عليه وسلم، بل بمعنى الوراثة الإصلاحية التي تجعل المؤمنين شهودًا على الناس بالحق والعدل والرحمة.

فإن سألنا: ما علامة حياة الأمة؟

فالجواب: أن يبقى فيها أولو بقية.

وإن سألنا: ما علامة مرضها؟

فالجواب: أن يكثر فيها الفساد ويضعف فيها النهي.

وإن سألنا: ما علامة خطرها الأكبر؟

فالجواب: أن تتبع ما أترفت فيه، ثم تكره من يوقظها.

وإن سألنا: ما أول طريق النجاة؟

فالجواب: أن يستيقظ في القلب معنى البقية، ثم يتحول إلى إصلاح في

الموضع الذي يقدر عليه الإنسان.

وما أجمل أن نختم بالمعنى الذي يقوم عليه هذا الكتيب كله:

الأمم لا تحفظ بكثرة الصالحين الصامتين إذا صار الفساد نظامًا، بل تحفظ بوجود المصلحين الذين يحملون بقيةً من الحق تنهى عن الفساد في الأرض. والتترف لا يهلك لأنه نعمة، بل لأنه حين يتبع يصير إمامًا يقود الظالمين إلى الجريمة.

والقلة لا تضر أهل الحق إذا كانوا على هدى، لكن الذي يضرهم أن

يستوحشوا من قلتهم فيلحقوا بالكثرة الغافلة.

والنجاة ليست حلمًا لمن تمنى، بل طريق لمن بقي فيه من الإيمان ما يقاوم،

ومن البصيرة ما يكشف، ومن الشجاعة ما ينهى، ومن الرحمة ما يصلح،
ومن التواضع ما يعلم أن الفضل كله لله.

فإذا غاب أولو البقية، لم يبقَ بين الأمة وبين الهلاك إلا مهلة الاستدراج.
وإذا حضروا، بقي في الأمة شاهدٌ على الحياة، وبابٌ إلى الرجوع، وسببٌ
من أسباب الرحمة، ولو كانوا قليلاً.

اللهم اجعلنا من أولي البقية، الذين لا يخذّرهم الترف، ولا يشتريهم الفساد،
ولا تُسكتهم الكثرة، ولا يفسدهم العجب، ولا تقسو بهم الغيرة، ولا تذيبهم
المجاملة؛ واجعلنا ممن ينهون عن الفساد في الأرض بعلمٍ وعدلٍ ورحمة،
ويقومون بالحق على قدر طاقتهم، ويعلمون أن النجاة منك وحدك، وأنت أنت
الهادي إلى سواء السبيل.

تم بحمد الله

فهرس الكتاب

الترقيم	العنوان	الصفحة
1	البداية	3
2	المقدمة الكبرى: حين يسأل القرآن عن الغائبين	9
3	الفصل الأول: سورة هود ومشهد مصارع الأمم	14
4	الفصل الثاني: معنى قوله تعالى: (أولوا بقية)	24
5	الفصل الثالث: الصالح والمصلح	38
6	الفصل الرابع: النهي عن الفساد بوصفه وظيفة حضارية	52
7	الفصل الخامس: الفساد في الأرض؛ من الذنب الفردي إلى الخراب العام	68
8	الفصل السادس: الترف بوصفه مخدر الأمم	84
9	الفصل السابع: القليل الذي ينجو	99
10	الفصل الثامن: أولو بقية في زماننا	114
11	الخاتمة الكبرى: آخر حراس المعنى	130